الإنسان
ليس عقلا

سالم القمودي

بسم الله الرحمن الرحيم

« وفى أنفسكم أفلا تبصرون »

(الذاريات ـ آية ٢١)

إهــــــداء....

إلى من يسمع صرخة احتجاج العقل
مــن أجل الحـقيقـة..
ويعمـل شيئا ...

من أجل الحقيقة

«إن من يريد حل جميع المشكلات، والإجابة عن جميع الأسئلة إنما يفرط فى التبجح، ويشتط فى الادعاء إلى درجة يكف معها فورا عن أن يكون موضع ثقة»

كانط

«نقد العقل المحض»

تصدير

● فلسفة علم النفس:

فى علم النفس شىء من العلم، لكنه فى الحقيقة علم بدون نفس وبدون عقل. بدون انسان بما هو إنسان. ولهذا أسباب عديدة، لكن السبب الأهم منها هو أن النفس والعقل يستعصيان على مناهج علم النفس، وهما قبل ذلك لايحظيان باعترافه بهما، كثنائية يتمايز أحدهما عن الآخر. وهو (أى علم النفس) إما أن يخلط بينهما، أو أن يدمجهما معا مع الجسد. فى صورة بيولوجية فسيولوجية واحدة، خالية من أى معنى إنسانى.

وهو لذلك السبب فى حاجة حقا الى فلسفة.. تقف وراءه تسنده.. تدعمه.. تنقذه من الشتات والتبعثر فى المنهج والمذهب...

● الإنسان ليس عقلا:

هذا هو هدف الكتاب وغايته، ومايريد أن يقوله للناس لكل الناس... يريد أن يبصرهم بحقيقة يعيشونها كل يوم فى تجاربهم الواقعية الحية، وهى أن الإنسان ليس عقلا، بمعنى أن الإنسان لايقوده عقله (قيادة سيطرة وأحكام)، بل تقوده نفسه (قيادة سيطرة وأحكام).

ولأنه كذلك فهو يكابد.. يشقى.. يشقى بنفسه، وليس بعقله، بل هو يشقى لأنه لايستسلم لأحكام عقله، ولايستكين له فلا يفتأ يلتمس

المسالك والدروب لابتزاز عقله، واستغلال قدراته ليصل إلى مايريد.. ولايهدأ له بال حتى يصل الى مايريد أو يعجز... بعد فشل وفشل... أو يموت...

وهو يفعل ذلك بنفسه، بل تفعله نفسه، لأنها هى التى تريد هى التى تحتاج.. هى التى تحب.. هى التى تكره.. هى التى تقرر الفعل وتختار، وليس العقل، وهى لذلك تخطىء.. تنحرف... تعصى: فتقتل، تنهب، تسرق، تشعل المعارك وتقيم الحروب تطلب ماليس لها، بل تستولى عليه أحيانا، تراوغ، تخادع، تكذب، تنافق، تتلون بألف لون، وألف وجه، وألف قناع.

وهى تفعل ذلك باسم العقل افتراء عليه، لا لشىء سوى لأنها تفعله بما يقدمه لها العقل ذاته الذى تفترى عليه من أنساق وكيفيات وأساليب لتحقيق آمالها وطموحاتها، ومقاصدهاوغاياتها، ولأن العقل مع ذلك، بل وهو إذ يقدم لها ذلك لايملك (وهذه هى نقطة التمفصل) السلطة العملية على النفس لإجبارها على أمر ما أو على تنفيذ كيفية ما، دون غيرها، وهى بالتالى لاتلتزم ولاتتقيد بما يحكم به العقل إلا طائعة مختارة، إلا إذا كانت هى التى تريد أن تلتزم وتتقيد. أما هو فلايملك إلا النصح والإرشاد، والمنطق والحكمة، والدليل والبرهان على خطأ أو صواب، أو صحة أو فساد ماتقدم النفس عليه من أفعال وأعمال، ثم يقف على الحياد، بعد أن يظهر تميزه عن النفس، ويظهر حكمه فيما تريد وترضى، وفيما لاتريد، فيما يوافق هواها، وفيما

لايوافق، وهذا هو الحد الفاصل بين ماهو نفسى، وماهو عقلى، بين الفكر والنزوع، بين منطق العقل فى حريته (وإن كانت هذه الحرية سلبية) وبين حرية الإرادة فى اختيارها، وفعلها، وتحقيقها. وهذا هو مرجع العقل المنطقى الواقعى، وجوهر حياده.

وإذ نسعى فى هذا الكتاب لمحاولة تأكيد التمييز بين العقل والنفس، وإظهار حقيقته، فلأننا نرى أن لهذا أثره الكبير فى فهم الإنسان فى أبعاده المختلفة، والتعرف على مصدر دوافع أفعاله وموجهات سلوكه، وللحكم على مايجرى فى الواقع الإنسانى من أحداث ووقائع بفعل الإنسان، ومعرفة مايمكن نسبته منها الى حكمة العقل، ومايمكن نسبته منها إلى دوافع الإرادة وهوى النفس.

فالتمييز بين العقل والنفس يتيح لنا:

● معرفة ماهو عقلى مما هو نفسى من الظواهر والتحليلات والأحكام والأفعال التى تصدر عن الإنسان: بمعنى فصل ماهو موضوعى عقلى عما هو ذاتى نفسى، من فكر وفعل وسلوك، ليتم من خلال ذلك تحرير أحكام العقل من أفعال الهوى وأوهام النفس، وبيان مايستند إلى العقل والحكمة منها ومايصدر عن الرغبة والنزعة.

■ فتح آفاق جديدة لدراسة الإنسان، ومعرفة حقيقة أحكامه وأفعاله.

■ تمييز الأمراض العقلية من الأمراض النفسية، لنتبين الفوارق

بينها وتسهل طرق معالجتها، دونما خلط بينها على مستوى الدراسة والتحليل، أو على مستوى التشخيص والمعالجة.

فهناك أمراض نفسية، وهناك أمراض عقلية، والأولى تختلف عن الثانية، وهذا يعنى أن هناك نفس لها أمراضها الخاصة بها تصيب النفس ولاتصيب العقل، وأن هناك عقل له أمراضه الخاصة به، تصيب العقل ولاتصيب النفس.. ويعنى هذا أيضا أن هناك نفس، وهناك عقل، وأن النفس غير العقل، وأن العقل غير النفس.

● إدراك أن العلاقة بين النفس والجسد أقوى وأعم وأشمل من العلاقة بين العقل والجسد، لأن النفس تستغرق الجسد كله، بما فيه العقل، بينما العقل جزء منه (من الذات بكاملها) وهو لذلك لايستغرق الجسد كله.

● الوقوف على حياد العقل، بل عند حياد العقل، لا نتبرأ من أخطائنا وانحرافاتنا، ولانحاول تبريرها كيفما أتفق، لنبرىء بذلك ساحة العقل من كل فعل ليس فيه من العقل شىء... من الحكمة شىء.

هذا مايحاول هذا الكتاب أن يثيره فى تواضع جم، لأن الأمر أكبر من مجرد تأملات ذاتية، تعترف بصعوبة الموضوع ودقته، وحساسيته، بل خطورته قبل ذلك.

لكن كل ذلك لايمنع من محاولة البحث عن الحقيقة، حقيقة

الانسان: الجسد، العقل، النفس، ومايميز أى منها عن الآخر، أو يؤثر فيه، أو يتأثر به، أو يفعل به، أو ينفعل به.

وأحب أن أنوه هنا الى أنه ليس من شأن هذا البحث الدخول فى الجانب الميتافيزيقى للنفس، وحسبه الأثر الواقعى الذى تحدثه النفس لتحقيق وجودها، وقوة هذا الوجود وطغيانه على الجسد والعقل.

كما أحب أن أنوه أيضا إلى أننى لم أقرأ كتاب (العالم ليس عقلا) بعد، وإذا ماكان العنوان الذى أخترته لهذا الكتاب (الإنسان ليس عقلا) يشير إلى وجود علاقة ما، فإن هذه العلاقة ليست سوى استفزاز شعرت به عندما علمت أن هناك كتاب اسمه (العالم ليس عقلا)، فكتبت هذا الكتاب ليس أكثر.

سالم القمودى

طرابلس /١٩٩٧

الجزء الأول

تمهيد

فلسفة علم النفس

ليس هذا بحثاً في علم النفس، ولكنه بحث عن فلسفة لفلسفة علم النفس، تبحث عن أساس جديد ومنهج جديد لدراسة الانسان لمعرفة الانسان: الانسان بما هو إنسان: موجود، حي، يفكر، يريد، يفعل، ينفعل، الانسان بما هو جسد ونفس وعقل، وليس الانسان بما هو عقل فحسب، أو بما هو نفس فحسب، أو جسد وعقل، أو جسد ونفس فحسب، أو بما هو عقل ومادة، أو مادة وروح فحسب.

إن مذاهب علم النفس ومدارسه ومناهجه الحالية مازالت قاصرة عن فهم الإنسان لأنها تبتسر الإنسان.. تحجب نفسه عنه، تلغي عقله فيه، في إرادته، في سلوكه، في وجدانه وبذلك تبخس حكمته، تحط من قيمته، تجرده من كل معنى.

وهي في كل ذلك لأنها لم تخرج بعد من دائرة المنهج العلمي التجريبي، لم تخرج بعد من دائرة فلسفة العلم المحض، لم تخرج من دائرة البيولوجيا والفسيولوجيا، التي لم تتح لنا حتى الآن غير معرفة بعض أماكن للمعلومات وأنساق الظواهر النفسية والعقلية في الدماغ البشري، بل حتى هذه لم تستطع تبين ملامحها إلا كأجزاء كفرادى وليس ككليات نفسية أو عقلية.. ليبقى بذلك علم النفس بدون نفس.. وبدون عقل...

ولعلنا «لا نتجاوز الواقع عندما نقول ان النظريات والفروض والحقائق النفسية كلها عبارة عن خليط مضطرب من الآراء والأفكار

ولهذا يصعب تحديد هدف بعينه ترمى إليه نظرية من النظريات النفسية، وأن المحكات الدقيقة والصارمة التى يضعها فلاسفة العلم للنظرية النفسية لاتتحقق إلا فى قليل جدا من الحالات... وحتى هذه فقد أثبتت حتى الآن أنها مخيبة للآمال إلى حد ما»(1).

والفلسفة الحديثة بمذاهبها المتعددة، بل حتى الفلسفة المعاصرة بإتجاهاتها المختلفة تنازلت عن حقيقة الانسان، من كينونته كما هو كما يوجد، ويفكر، ويريد، كما يعيش فى واقعه الجسدى النفسى العقلى، تنازلت عن البحث فى النفس، بما هى نفس، برغم اعترافها بالاستقلال الذاتى للإرادة عن العقل، وبأن العمليات العقلية متميزة عن النزوع والوجدان، بل ان المفكرين والفلاسفة حتى وقت قريب يتجادلون حول ثنائية (الجسد - العقل)، (المادة - الروح) ليردها بعضهم إلى وحدة واحدة هى المادة فقط، كما يزعم البعض، أو العقل فقط، كما يذهب إلى ذلك آخرون، أو السلوك فقط، أو الشعور أو الوجدان «الأمر الذى أدى إلى ظهور نظريات مبتسرة وقاصرة تناولت جانبا من الانسان دون جانب، وبالتالى اختلفت الحلول التى قدمتها تلك النظريات للمشكلات الانسانية تبعا لاختلاف أساسيات ومصادر الاستنباط والاستقراء، ومراجع الاستبطان والحدس والالهام»(2).

1) جيمس دينز - أزمة علم النفس المعاصر - ترجمة د. سيد أحمد زيان - ص 70 .. مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة 1990

2) سالم القمودى - العودة إلى الأصل - ص16 - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان - مصراتة 1992.

فليست ثنائية ديكارت (فكر - بدن) ولاتقسيمات كانط للعقل ولا واحدية هيجل (الروح) ولا وجودية سارتر ولاظاهرية هوسرل (الشعور) بكافية لدراسة الإنسان.. لمعرفة الإنسان بما هو إنسان بجسده وعقله ونفسه، بوجوده وتفكيره وارادته.

وإذا كان علم النفس قد انفصل عن الفلسفة منذ قرن من الزمان منذ أن انشأ (فونت) سنة 1879 أول معمل لعلم النفس فى (ليبزج) بالمانيا، فان العلم، أى علم، لايقوم إلا على فلسفة.. فلسفة لفلسفة العلم، لفلسفته، وقد آن الآوان لعلم النفس - لا أن يعود إلى الفلسفة بمعناها العام - ولكن ليبحث له عن فلسفة.. فلسفة لفلسفته، ولم شتاته المبعثر بين الاتجاهات والمدارس والمناهج المختلفة لعلم النفس السائدة الآن، ليوحد الاتجاهات والمذاهب.. ليوحد مناهج البحث أو يوصل بينها، ليجعل بذلك من علم النفس علما واحدا، لا مجموعة علوم مشتتة مجزأة، مبعثرة هنا وهناك، ليؤدى ذلك إلى فهم أشمل وأعمق للإنسان.

ولأن الإنسان ليس جسدا فحسب فلايجب أن يدرسه العلم (المنهج العلمى التجريبى) فحسب، لأن هذا المنهج لايستغرقه بجسده وعقله ونفسه، بل هو محدد بحدود قواعده، وضيق اشتراطاته الجامدة.. وليس فى امكانه بسبب من ذلك أن يفسر الإنسان، أن يدرس الإنسان، بما هو إنسان، بما هو ارادة، نزوع وجدان، عقل، فكر، معنى، قيمة، كرامة.

ولأن الإنسان ليس عقلا فحسب فلا يجب أن يختزل الإنسان ويفسر بمقولات العقل وحده، بمنطق العقل وحده، ولا يجب أن نتجاهل نفسه، وهى التى تأمره فيطيع، مجبرا، مكرها، دون تفكير أحيانا، (بمعنى) غير عابئ بحكمة العقل، وحدود المنطق، وقوة براهينه، لأنها هى التى تختار، هى التى تقرر، هى التى تفعل، لأنها هى منبع الإرادة، هى النفس (فى حالة الفعل) وليس العقل.

يجب إذا ان نلتمس مدخلا جديدا، ومنهجا جديدا لدراسة الإنسان، يسمح لنا أن نميز بين دراسة العقل، بما هو عقل: تأمل، تمييز، تحليل، تركيب، استنباط، استقراء، وبين دراسة النفس بما هى نفس: سلوك، إرادة، دافعية، عمل، فعل، انفعال، وجدان... ولكن تظهر من خلال ذلك علاقة كل منهما بالآخر، وعلاقتهما معا بالإنسان الذى يتأرجح بين أحكام العقل وهوى النفس، بما فى هذا الهوى من عناصر لا عقلية، لاتقف عند حد.

وإذا كان علماء النفس جميعا عقليين وسلوكيين يرفضون هذا التمييز بين العقل والنفس - بشكل خاص - بل يدمجونهما معا تحت مصطلح واحد هو علم Psychology ويقصدون به الذهن أو العقل (intellect) أو الذكاء intelligence أو (السلوك behavior) بحثا عن الموضوعية، وانسياقا وراء المنهج العلمى التجريبى، وما يعترف به وما لا يعترف به، فإن واقع الإنسان كذات، كشخصية فردانية إنسانية هو غير ذلك، بل إن هناك شىء ندركه فى ذواتنا، ونعيشه فى حركتنا وتفاعلنا وسلوكنا

وتصرفاتنا: كإرادة، ونزوع، ووجدان، كعواطف ومشاعر، وأحاسيس، عندما نعمل، نريد، نرفض، نحب، نكره، نفرح، نبكى، نصرخ، نبتسم، نضحك شيء اسمه (النفس Soul). وهناك ايضا شيء آخر اسمه (العقل mind) لايفعل مايفعله الأول، بل قد لايروقه بعض أو كل ما يفعله الأول، حتى أننا لنشعر أحيانا أنهما خصمان ضدان، يجمعهما جسد واحد، وأحيانا صديقان حميمان، داخل هذا الجسد الواحد.

فالعقل والنفس برغم أنهما متمايزات، حتى لكأنهما منفصلان، فأنهما يمتزجان أحيانا حتى لكأنهما واحد، يفكر العقل فتسمع النفس اذا ماكانت النفس راضية آمنة مطمئنة... وتطلب النفس فيلبى العقل اذا كان ماتطلبه صحيحا، طيبا، صادقا، أما اذا ماكانت النفس أمارة بالسوء، تميل إلى هواها، حدث الانقسام والشقاق بينها وبين العقل، حتى ليبدوان كأنهما غريبان في جسد واحد. وهذا مايميز أى منهما عن الآخر، ويظهر اختلافه عنه فى المعنى والوظيفة، والهدف والوسيلة، والحكمة والرغبة، والشهوة والفضيلة.

ونحن عندما نتحدث عن الجسد كجسد، كبناء فيزيائى من العظم واللحم والدم والعرق والعصب، فنحن بالتأكيد لانعنى أى من النفس أو العقل، ولانحتاج فى ذلك الى دليل مادى، أو اثبات علمى، أو برهان منطقى.

وعندما نتحدث عن العقل بما هو عقل: وعى، فهم، ادراك، تأمل، تحليل، تركيب، استنباط، استقراء، فنحن بالتأكيد لانعنى النفس بما

هى نفس: نزوع، ارادة، حركة، فعل، انفعال، هوى، وجدان.

وعندما نتحدث عن النفس بما هى كذلك فنحن بالتأكيد أيضا لانعنى أى من العقل أو الجسد، لانعنى الامتداد والتفكير، المادة والعقل لانعنى بالتحديد الكوجيتو الديكارتى (أنا أفكر، إذا أنا موجود)، لكننا نعنى شيئا آخر، غير العقل، وغير الجسد، شىء لايستغرقه الكوجيتو الديكارتى.

ذلك ان النفس فى الحقيقة هى غير العقل، وهى ايضا غير الجسد أنها شىء آخر، ندركه تماما عندما يقول الواحد منا (أنا أريد)، فيمتثل الجسد، (فيما يقدر عليه) لتحقيق هذه الارادة، لتحقيق الفعل حيث قد يرفض العقل. شىء آخر: يحب، يكره، يفعل، ينفعل، ينكر، يعترف، وقد يبالى ولايبالى بأحكام العقل، وقد يراعى ولايراعى قدرة الجسم، شىء آخر مميز عن العقل، وعن الجسم وأن كان لايملك بدونهما حركة، ولا فعلا، ولاتفكيرا.

حتى إذا مافقد العقل توقف الفكر، لتبقى النفس تائهة فى شتات من التصورات المبعثرة، المتقاطعة، المتضادة، المتناقضة، وليبقى الجسد بذلك منهوك القوى، لايعرف الراحة والاستقرار، أينما توجهه النفس الحائرة ـ دون هدى العقل ـ يلبى صاغرا، مادامت فيه بقية من صحة وعافية.

وإذا ماعجز الجسد عن الحركة توقفت النفس بذلك عن الفعل والعمل، لفقدها لأداة الفعل (الجسد).

وإذا ماهلك الجسد بالموت، توقف كل ذلك عن الحياة والتفكير والحركة.

نحن إذا أمام ثلاثية يمكن البحث فيها ودراستها، والتمييز بينها فى البحث والدراسة، وفى الدور الذى تقوم به، والوظيفة التى تؤديها كل منها، ثلاثية تتشكل من: الجسد، العقل، النفس، وليس أمام ثنائية: الجسد ـ العقل، أو الجسد ـ النفس، (بادماج العقل والنفس فى مفهوم واحد ومعنى واحد) كما هو الشأن عند علم النفس، أو عند الفكر الفلسفى الحديث والمعاصر على السواء.

هكذا يبدو الإنسان فى وجوده وتفكيره وارادته، بل هذا هو الإنسان الفرد فى واقعه النفسى العقلى المادى، وهذا هو مانشعر به بل نعيشه لحظة بلحظة، فى تجربة واقعية منطقية حية.. ونحن نتخاصم مع أنفسنا، ونحن نحاسبها، نعاتبها، ونحن نواجه أحكام عقلنا، ونخضع لها أحيانا.. نطيعها أحيانا.. نتخطاها أحيانا.. نقف حائرين أحيانا بين ماتهوى النفس. ومايقبله أو يرفضه العقل من هذا الهوى.

ثلاثية تعترف بها اللغة، ويعترف بها الفكر، وتعترف بها التجربة الواقعية الحية، ومع هذا لم يجرؤ أحد من المفكرين والفلاسفة، بل وعلماء النفس على البوح بها صراحة، لأنها ثلاثية تحد من العقل فلايستغرقها منطقه، ولأنها ترفع عن العقل عناء مسئولية فعل اللاعقل فيخلو هذا الفعل بذلك من التبرير الذى تحتاجه النفس لتسكن إليه وتطمئن به.

لكن هذه الثلاثية من ناحية أخرى لاتعنى ذواتا ثلاثة، جواهرا ثلاثة فى الذات الواحدة، داخل الجسد الواحد، أو ان الإنسان غير واحد بجسده وعقله ونفسه، أو أن كل من الجسد والعقل والنفس جزء مقسوم، بقدر ماتؤكد هذه الثلاثية وحدة حقيقة الإنسان كجوهر واحد ذات بعينها هى النفس.. هى كينونته، وحقيقة وجوده، وعلة ارادته ونزوعه، وفعله وسلوكه، وانفعاله وتفاعله. نفس لها عقل تفكر به، مثلما لها جسد تفعل به.. لها منظومة تفكير، وعى، ادراك، فهم، ذكاء، ذاكرة، تخيل... الخ، مثلما لها منظومة سمع، بصر، شم، حس، لمس.. الخ، مثلما لها منظومة حركة، وأدوات فعل تحول بها وعن طريقها الفكر الى وقائع، وأحداث، وعلاقات، لتتكامل هذه الوحدة فى نسيج مادى، عقلى، نفسى، واحد، كل متكامل بوجوده وحياته وفكره وارادته، بعقله وسلوكه ووجدانه.

ونحن على مستوى التفكير العادى، أو على مستوى الفهم المشترك كثيرا مانلمس هذا التمييز بين ماهو عقلى وما هو نفسى من تصرفاتنا وأفعالنا، دون كبير عناء، بل بشكل تلقائى اعتيادى، وكل منا عنده من التجارب والخبرات مع نفسه ومع الآخرين مايعبر واقعيا، بل يبرهن منطقيا على هذا التمييز، بين العقل والنفس «بين الحكمة والهوى. ومن منا لايعترف بأن النزعات والرغائب والأهواء ومايتعلق بها هى من افعال النفس، وليس من أحكام العقل، ومابالنا نرى أن الذى «يسرق يدرك بعقله أن السرقة حرام وفساد، ومع ذلك

فهو يسرق وأن الذى يزنى يعلم يقينا أن الزنا من الكبائر، وأنه مهلكة للحرث والنسل، ومع ذلك فهو يفعل، وان الذى يكذب يعى ان الكذب مضيعة لماء الوجه، ومع ذلك فهو يكذب»(1). فالذى يزنى ويسرق ويكذب لايفعل ذلك بعقله، بل هو يفعل ذلك ضد عقله.

غير أن مذاهب علم النفس ومدارسه لاتعترف بهذا التمييز بين العقل والنفس، بل ان علماء النفس يرون أن العقل والنفس شىء واحد هو (النفس Psycho) وأن هذه النفس «شىء مادى، يخضع للقوانين العلمية والتجارب المضبوطة... وأن نفس الفرد موجودة بطريقة مادية فى المشتبكات العصبية المختلفة الموجودة فى الدماغ، والتى تتصل ببعض من خلال نبضات كهربائية تحت تأثير مواد كيميائية وهرمونية خاصة، وأى تلف أو خلل فى الشحنات الكهربائية أو كيفية أو كمية المواد الكيميائية سيؤدى إلى اضطراب فى وظيفة الخلية العصبية، ومن هنا تنشأ الاضطرابات النفسية والعقلية، ومن ثم يتجه الطب النفسى الحديث فى العلاج إلى أعادة التوازن البيولوجى فى الدماغ»(2).

وهم فى ذلك يخلطون بين العقل والنفس، ويعتبرون أن العقل هو النفس، وان النفس هى العقل، ويعتبرون كذلك أن التفكير والسلوك

---

1) سالم القمودى - التغيير - ص 48 - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان 1996

2) د. احمد عكاشة - علم النفس الفسيولوجى - ص 13 - الطبعة الثامنة - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة - 1993.

والوجدان كلها ظواهر نفسية، مصدرها النفس، وأن مايطلق عليه اصطلاحا (النفس) هو شيء خاضع للبحث العلمي، وأن الأمراض النفسية والأمراض العقلية هي ذات أساس فسيولوجي، وأنه يمكن علاجها عن طريق دراسة التركيبات الكيميائية المختلفة في الجسم.

كما أن مدارس علم النفس لاتعترف بهذا التمييز، أيضا بين العقل والنفس، برغم أنها تصف بعض الظواهر والأمراض بأنها عقلية وتصف أخرى بأنها نفسية، وأحيانا أخرى تدمجها معا لتقول عنها أنها ظواهر أو أمراض نفسية عقلية. لكن الأمراض النفسية غير الأمراض العقلية، فهناك مثلا:

● أمر اض نفسية (وهي الاضطرابات السلوكية والعاطفية) مثل: اضطرابات السلوك والشذوذ والانحراف الجنسي، الأدمان والتعود على العقاقير، كالمهدئات والمنومات والمسكرات والمخدرات، الكآبة النفسية، الوهم، المخاوف، القلق النفسي، الوسواس، والوسواس القهري، الهستيريا.

وهي أمراض يشعر بها المريض، ويعرف اعراضها، ويحاول أن يخفيها عن الناس، لكنه يعجز عن التغلب عليها.

● **أمراض عقلية، مثل:**

التخلف العقلي، الامراض الذهانية العقلية، كمرض الشيزوفرينيا (الفصام العقلي) أو انفسام العقل، أمراض الكآبة العقلية، أمراض الهياج العقلي.

وهى أمراض لايشعر بها المريض، غالبا، بينما تظهر لغيره من الناس من حوله.

وهذه الأمراض العقلية «تختلف اختلافا جذريا فى طبيعتها عن الأمراض النفسية، إلا أن كليهما يمثل اختلالا فى توازن الحياة النفسية وعملياتها فى المصابين بهما، ثم أن هناك حدودا وحالات مشتركة بينهما، بالاضافة إلى استجابة كل من الفئتين إلى العلاجات الواحدة فى بعض الحالات، وكل هذه الاعتبارات تجعل البحث فى الواحد من هذه الأمراض دون الآخر أمرا ناقصا»(1).

● أمراض عصبية عضوية:

مثل حالات الصرع، والأمراض التى تصيب المخ، أو الجهاز العصبى المركزى. وهذه شأنها شأن أمراض الجسد الأخرى، التى لايمكن أن نصفها بأنها أمراض نفسية أو أنها أمراض عقلية، برغم تأثيراتها النفسية المصاحبة لها، والتى تختلف من شخص إلى آخر، بحسب قوة المرض، ودرجته، ومدى خطورته، وتأثيره على سائر الجسد.

واذا ماكان «بعض الأخصائيين يعتبرون الأمراض العقلية (نوعيا) كالأمراض النفسية، وان الاختلاف بينهما هو اختلاف درجة، لا اختلاف نوع وقد يكون هذا الرأى صحيحا فى النواحى العاطفية

---

1) د. على كمال - النفس - الطبعة الرابعة - الجزء الأول - ص 19 من مقدمة الطبعة الأولى - دار واسط للمطبوعات والنشر - بغداد 1988.

والسلوكية، ولكنه رأى لايثبت فى النواحى العقلية، حيث تظهر على المريض أعراض لاشبيه لها فى التجربة العقلية لكل من الفرد الصحيح أو المريض نفسيا.. فالتجربة العقلية للمريض عقليا فى «النوع» هى تجربة جديدة، ومخالفة للتجربة العقلية الطبيعية، وهى تدل أيضا على ان التغير والاضطراب الذى يصيب الشخصية ليس تغيرا أو اضطرابا محصورا فى ناحية ضيقة كما هو الحال فى الامراض النفسية، وإنما هو تغير واضطراب واسع وشامل يصيب الشخصية بكاملها ويغيرها الى صورة لاتتساوى فيه مع صورتها السابقة بالنسبة للواقع وبالنسبة للمجتمع، وفى درجة هذا التغير وفى نوعيته تتوفر الفروق الأساسية بين المريض نفسيا والمريض عقليا»(1).

ولعل الخلط بين مايختص بالعقل ومايختص بالنفس من سلوك وأحكام وظواهر وأمراض، وأحوال وأفعال، فى علم النفس، وكذلك اختلاف مذاهبه ومدارسه واتجاهاته، من سلوكيين وتجريبيين وعقليين، هو ماجعل هذا العلم فى «أزمة، وقد كشفت حالة الأزمة هذه عن نفسها بشكل قوى فى عدم الثقة المتزايد فى المنهج العلمى عامة، وفى الطريقة التجريبية خاصة وأنا لواجدون فقدان الثقة هذا عند كل

1) المصدر السابق- ص 538- 539

المعنيين بالمشكلات النفسية من طلاب وممارسين وباحثين»(1). لأن الطريقة التجريبية في علم النفس يفتقد المعنى، والدلالة الإنسانية، التي تجعل علم النفس يفتقد البعد العقلي، النفسي، الوجداني.. يفتقد التمييز بين المادي والعقلي والنفسي من جهة، وبين النفسي والعقلي من جهة أخرى... التمييز بين العقل كمنظومة عمليات عقلية تهتدي بها النفس الي معرفة الخير والشر، والحق والباطل، والخطأ والصواب، والصحة والفساد، عن طريق الوعي والفهم والادراك، والتأمل والتمييز، والتحليل والتركيب، ،والاستنباط والاستقراء.. وبين النفس التي تستغرق الذات بكاملها كدافعية، نزوع ارادة، فعل، عمل، كوجدان.. كمنبع للعواطف والشعور، ومصدر للحب والكره، والحسن والقبح، والفرح والترح، والهوى والرغائب.

حتي «أنه يمكن النظر إلى علم النفس على أنه حشد متنافر من اجتهادات فكرية، شديدة التباين والاختلاف، ومما لاشك فيه أن مشكلات علم النفس متنوعة جدا الى الحد الذي يمكننا معه ان نتساءل بحق عما اذا كان شيء يمثل علما واحدا أسمه علم النفس»(2).

وهو مايؤكد أن علم النفس ليس في حاجة إلى علم فحسب، بل هو في حاجة حقا إلى فلسفة يستند اليها العلم في النفس، فلسفة

---

1) جيمس دينز - ازمة علم النفس المعاصر - ترجمة د سيد أحمد زيان - ص 17 - مكتبة الأنجلو المصرية [illegible] 1990)

2) المصدر السابق - ص 123

لفلسفة علم النفس، تدعم العلم (فى علم النفس) وتسعى إلى «نمو تصور للمعرفة أكثر رحابة، وفكرة أقل تكبيلا من المنهج العلمى، ووعى بحدود مناهج معينة» (1). فلسفة لاترتبط مباشرة بفلسفة العلم التجريبى، ومناهجه الضيقة، المحدودة المنطق، فلسفة تتحقق بل تعترف بأن العقل غير النفس، وأن النفس غير العقل، وأن «الظاهرة الإنسانية ليست كالظاهرة الطبيعية، وأنها من نوعية مخالفة، وان الظاهرة النفسية تختلف عن الظاهرة الفيزيقية، وان الظاهرة الاجتماعية ليست شيئا ملموسا يقاس كما، إذا كانت الظاهرة الطبيعية كما، فالظاهرة النفسية كيفا واذا كانت الظاهرة الطبيعية يمكن قياسها فإن الظاهرة النفسية تند عن القياس، وإذا كانت الظاهرة الطبيعية يمكن التنبؤ بمسارها ووقوعها إذا علمنا قانونها وسيطرنا عليها، فالظاهرة الإنسانية تند عن القانون، وتتميز بحرية باطنة، لايمكن التنبؤ بمجراها ووقت وقوعها، أو بأشكالها المستقبلية»(2).

كما أن «زيادة النزعة إلى استخدام مصطلح (عقل) - فى علم النفس - ليس مجرد قلب أو عكس كسول لصياغة مصطلح ما، أنها تعبر عن تغير فكرى أصيل، أنها تبين فى جانب منها أن السلوك ليس سوى التعبير الخارجى عما هو ذو قيمة حقيقية. كما أنها

1) المصدر السابق - ص 184.

2) حسن حنفى - مقدمة فى علم الاستغراب - ص 366. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت - 1992.

تعكس أيضا فى جانب آخر اعتقادا لايعبر عنه بوضوح كاف وهو أن جهازا على مستوى تعقيد الجهاز العصبى المركزى عند الانسان بعلاقاته مع أعضاء وأنساق أخرى يؤدى إلى بزوغ ظاهرات قد تكون فريدة فى العالم. هذه الظاهرات البازغة شىء غير قابل للتنبؤ به، ولا قابل للفهم من خواص المكونات عندما تؤخذ فرادى، ومستقل بعضها عن بعض. الجهاز العصبى المركزى فى الانسان وهو مغروس فى سياقه البيولوجى يؤدى إلى وجود ظاهرات لاتفهم ببساطة من معرفة الخواص المادية للخلايا المفردة التى يتكون منها الوعى واستمرارية الادراك وتنظيمه والذاكرة واللغة والاحساس بالمعرفة والارادة. ذلك كله ظاهرات بازغة تنتج من تنظيم خلايا الجسم. أن علم النفس من وجهة النظر المعاصرة هو دراسة هذه الأنساق أو المنظومات البازغة، مصطلح (عقل) هو أفضل مصطلح يطلق عليها فى جملتها»(1).

وبما انه توجد أصناف كثيرة من الانساق والمنظومات وكلها تشترك فى خاصة معينة هى أن نتيجة علاقة الأجزاء ليست متأصلة فى الاجزاء ذاتها » (2) ولكن فى العلاقة نفسها، فى التفاعل الدقيق لهذه الانساق والمنظومات مع بعضها البعض. وبالتالى فإن «خواص العقل لايمكن أن تتحدد من المكونات البيولوجية المفردة »(3).

1) جيمس ديتز - ازمة علم النفس المعاصر - ترجمة د. سيد احمد زيان ص 159 مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة 1990

2) جيمس ديتز - ازمة علم النفس المعاصر - ص160 .

3) جميس ديتز - ازمة علم النفس المعاصر - ص 160

وإذا ما كان علم النفس الفسيولوجي حديث العهد فإنه قد يكشف يوما ما عن هذا التمييز بين العقل والنفس.. بين ما يختص به العقل من وظائف: كالوعي والفهم والادراك، والتحليل والتركيب، والتأمل والاستنباط، وبين ما تختص به النفس من وظائف مغايرة وربما متعارضة بل متناقضة أحيانا مع وظائف العقل، كالعاطفة والميول والانفعال والوجدان خاصة إذا ما كانت وراء هذه الوظائف مطالب تتوجه وتهديه، وتنير له طرائق بحثه.

والغدد الصماء ذات الافراز الداخلي، التي تصب هرموناتها مباشرة في الدم يمكن ان تلعب دورا توضيحيا مهما في ذلك خاصة في مجال العلاقات الوظيفية الفسيولوجية لأن معظم العلاقات والوظائف تحدث نتيجة تغييرات كيميائية كهربائية على درجة عالية من التكامل والدقة. وترتبط فاعلية كل مستوى من هذه التغيرات بفاعلية المستويات الأخرى من الوظائف حتى اذا ما أصيبت هذه الغدد بمرض ما أضطرب التكامل الكيميائي للجسم وتأثرت وظائف الجهاز العصبي لتتأثر بالتالي العلاقات الوظيفية الفسيولوجية «وقد غال بعض الفسيولوجيين في هذا الاتجاه معتبرين ان المعادلة النفسية ليست سوى معادلة هرمونية، واعتبروا أيضا أن المعادلة الشخصية لفرد ماليس سوى معادلة هرمونية، وإن الشخصية والسلوك خاضعان لنشاط الغدد الصماء، وقد اجريت أبحاث عديدة تهدف إلى اثبات حقيقة هذه الفرضية »(1).

---

1) د. محمد زيعور - السلوك والقياس الشخصي في علم النفس [illegible] بيروت 1990.

ولكن، يبقى التمييز بين العقل والنفس.. بين مايختص بالعقل ومايختص بالنفس من وظائف وأحوال، وظواهر وأفعال، ومواقف وأحكام هو أهم مايجب على علم النفس أن يهتم به، لأن ثلاثية «الجسم، العقل، النفس» وثنائية «النفس، العقل» هي في حقيقة الأمر من المسلمات الواقعية المنطقية التي يصعب على المرء أن يتنكر لها، أو ينكرها، وهو يدركها بعقله، ويعيشها في واقعه الجسدي العقلي النفسي، كتجارب واقعية حية، عندما تقوده نفسه إلى حيث يريد عقله، وإلى حيث لايريد، وعقله مع ذلك مدرك لصواب مايريد، ولخطأ مالايريد.

وبدون هذا التمييز يبقى علم النفس علما بدون نفس، بدون عقل بدون وجدان ، بل بدون رشد يخفف عن الانسان مآسي الكبت، ويرفع عنه عناء اللاوعي واللاشعور، ويميز بين العقلي واللاعقلي في أحكامه وأفعاله وسلوكه.

الجزء الثانى

« الإنسان ليس عقلا »

الفصل الأول

الجسد

«الصورة الأولى»

الجسد

«الصورة الأولى»

يعرف الإنسان بجسده أولا: طوله، قصره، عمره، لونه، ملامح وجهه، تقاطيع جسمه... الخ، تلك هي الصورة الأولى التى ندركها عن إنسان ما، ذات بعينها، زيد أو عمرو، سلمى أو سوسن من الناس. فنحن «للوهلة الأولى نعرف الآخر من خلال جسده، أنه يبدو لى فى جسده، أو هو جسده الذى أراه وأدركه»(1).

لكن هذه الصورة الأولى (صورة الجسد) مهما كانت جميلة جذابة أو حسنة متواضعة، أو عادية مهملة فهى صورة ناقصة، مبتورة، بل خادعة أحيانا، ومحيرة أحيانا أخرى، لأنها محكومة بالداخل، والداخل لايدرك لأول وهلة (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة) (2). حتى يكتشف ما بالداخل، ويظهر للعيان، كفكر أولا، وكفعل أو موقف ثانيا، وعندها فقط تحدث المفاجأة يظهر ما بالداخل ليفضح ما بالخارج أو يزكيه، يسلبه حسنه وجماله أو يضفي عليه حسنا وجمالا وبهاء، وتتحقق عندها المعرفة بالذات بكاملها بجسدها، وفكرها. وفعالها.

غير أن البعض لايرى غير هذه الصورة الاولى للذات، ولايعرف

---

1) هشام الحاجى - الجسد - ص 5() (الجسد فى اللاوعى الثقافى العربى - د. على زيعور).

(2) سورة (المنافقون) الآية 4

غير الجسد، بل يكاد لايعرف غيره، وهو لذلك محصور فيه، يختزل فيه المعنى والقيمة، مهموم به، مهموم له، أما فى العناية به، والحفاظ عليه، والانشغال بمظهره، أن كان الجسد جسده، وأما فى اشتهائه والسيطرة عليه، بل محاولة تملكه أحيانا، أن كان الجسد جسد الآخر.

ومثل هؤلاء الذين لايعرفون غير الصورة الأولى من الإنسان ولايعيشون إلا عليها، أو من خلالها، هم فى حقيقة الأمر لايعيشون إلا فى الخارج، لأن الاعجاب بالجسم لحسن صورته لايكفى لمعرفة الحقيقة.. حقيقة الفرد من الداخل، وكذلك الاعجاب بالقول، لانهما سرعان مايتواريان خلف الفعل والتصرف والسلوك.

«والذين لايعيشون إلا فى الخارج - على القسم الخارجى من ذواتهم - مأخوذون بطقوس سطحيه، ومقيدون بها حرفيا، وهم لجهلهم الفكر ينتشرون وينقسمون، ويضيعون بين واقع الحقيقة وخيال الوهم، فالإنسان الداخل أو الإنسان الداخلى عندما يترك المستوى السفلى، مستوى الخارجية، فانه يقف عند باب ذاته فى حالة يقظة وتنبه.

إن مبادىء من فوق ومن تحت التى نجدها فى الكتابات المبهمة فيها معنى الداخل والخارج، فالفوق يتجاوب والداخل، وهذا الداخل يعنى العمق، والتحت هو الخارج، وهذان البعدان يبدوان أساسيين فالانسياق من الخارجية الى الداخلية يقتضى حركة وسفرا، والفوق

هو علامة قيمة، والانسياق نحو الفوق، وإجتياز مختلف درجات تكلم عنها (أفلاطون) فى المادية هو عمل صعودى نجتاز به مختلف الدرجات التى تفصل التحت عن الفوق»(1). ولهذا كان الجهاد ضد النفس هو الجهاد الأكبر، لأنه جهاد تقوده النفس ضد نفسها، من أجل تحقيق قدر من العدالة بين التحت والفوق، وكذلك قدر من التوازن الجسدى العقلى النفسى، حتى لايطغى جانب على جانب فى ذات الإنسان الفرد.

ولأن الجسد هو الواقع المادى للذات فهو لذلك هدف أى تسلط على الإنسان، ورمز أى عقاب يراد أن ينزل به. وهو من جهة أخرى مطمع كل سلطة سياسية أو اجتماعية أو ثقافية تسعى لأن تفرض هيمنتها عليه، ولذلك «يمكن أن تكون هناك (معرفة) للجسد - ليست بالضبط علم نشاطه - وسيطرة على قواه هى أكبر من القدرة على التغلب عليها: تشكل تلك المعرفة وهذه السيطرة مايمكن تسميته تكنولوجيا السلطة»(2).

وهذه التكنولوجيا لاتهمها إلا الصورة الخارجية من الجسد أو الصورة المادية له، فهى لاتهتم للأفكار التى تحملها الذات فى داخلها، ولابقدرتها على الابتكار والابداع، ولابحاجتها الى الكرامة

1) مارى مادلين دافى - معرفة الذات - ترجمة نسيم نصر - الطبعة الثالثة ص 176 منشورات عويدات - بيروت - 1983.

2) ميشيل فوكو - المراقبة والمعاقبة - ص 31 - مقتبسة من ميشيل فوكو - مسيرة فلسفية - أوبيرو ريتوس - ترجمة جورج أبى صالصح - مركز الانماء القومى - بيروت.

الانسانية، وبما تحققه هذه الكرامة من عدل بين الناس، وحرية فى القول والفعل، بل هى تسعى فقط لاخضاعه وأسره فى «نظام اخضاعى، حيث (الحاجة هى أيضا أداة سياسية معدة، ومدروسة ومستخدمة بعناية) لايصبح الجسد قوة مفيدة إلا إذا كان بآن معا جسدا منتجا، وجسدا خاضعا»(1). وهو لذلك «فارق مباشرة فى ميدان سياسى، فعلاقات السلطة تمارس تأثيرا مباشرا عليه، أنها تستثمره توسمه، تروضه، وتعذبه...»(2). حتى يمكنها استغلاله وابتزازه، بل تطويعه، لتمرير أفكارها وبرامجها ومشاريعها وتحقيق أكبر قدر ممكن من السمع والطاعة، والخضوع والولاء.

والجسد مثلما هو أداة تعريف أولى بالذات فهو ايضا اداة تعبير للنفس «أداة أفصاح عن طبيعة الإنسان أو خصائصه واخلاقياته» (3). ولغة الجسد غير لغة الكلام «والفاظ الجسد هى حركاته وايماءاته، مظهره وعوارضه افصاحاته وأخفاءاته، فتعبيرات الجسد: حين انفراده بنفسه وفى تواصله المستمر مع الآخرين، وداخل العلاقات، انه يرسل ويتلقى، ويثير ويستجيب، يبث ويرد، يعلن ويخفى، فهو منغرس فى شبكة نفسية اجتماعية، فى سياق علائقى»(4).

1) ميشيل فوكو - المراقبة والمعاقبة - ص 31 - مقتبسة من ميشيل فوكو - سيرة فلسفية - اوبيرو رينوس - ترجمة جورج أبى صالح - مركز الانماء القومى / بيروت

2) المصدر السابق ص 31

3) هشام الحاجى الجسد - من بحث د. على زيعور - ص 51

4) المصدر السابق - ص 58.

ولذلك فان لغة الجسد «تكشف عن انفعالات وعن ردود الفعل البشرى تجاه الظواهر والأحداث، كشف متفاوت المستوى، من حيث الوضوح والوعى واللاوعى.. وليست تلك اللغة وذلك الكشف الواعى واللاواعى والعفوى والطبيعى مبعثرة أو جزئيات مجانية، فتعبيرات الجسد تؤخذ فى بنى منتظمة وداخل أنساق، أو هى تشكل وحدات مترابطة عضوية، حية، وذات دلالات عامة. يعنى هذا أن هذه الدلالات لحركات الجسد تفصح عما هو نفسانى وتمتلك كل الخصائص التى يمتلكها الكلام اللفظى، أو اللغة بالكلام»(1).

والجسد مثلما هو أداة تعريف أولى بالذات، وأداة تعبير للنفس فهو أيضا أداة فعل وأنفعال، وتصرف وسلوك، به تفعل النفس وتنفعل، تسعى، تنتقل، تكتسب، تشبع شهواتها، ترضى هواها، تحقق أحلامها، ارادتها (فيما تستطيع أو فيما يتيسر لها)، فالجسد هو «أول أداة للإنسان، وأكثرها طبيعية»(2).

وبرغم أن الجسد هو مصدر تشخص النفس، وأداة فعلها وأنفعالها إلا أنه لايسعه إلا الطاعة والانقياد للنفس، لأن الجسد لايملك السيطرة على النفس، ولايستطيع أن يقودها، بل هى التى تقوده قيادة سيطرة وأحكام، ولذلك فان النفس هى الفاعلة للفعل (أى فعل) لا هو، وهى المحاسبة عما يفعله الجسد، لأن الفعل فعلها هى،

1) المصدر السابق ـ ص 51

2) مارسال موس ـ تقنيات الجسد ـ مقتبسة من هشام الحاجى ـ الجسد ص 134.

والجسد جسدها والعقاب هى غايته لا الجسد.. فعقاب الجسد عقاب لها هى عقاب لفعلها (بالجسد)، وهو لذلك السبب كثيرا مايكون الضحية الأولى التى تقدمها النفس، مقابل خطاياها، نزعاتها، طمعها، استغلالها له، متاجرتها به أحيانا.. بكرامته.. بآدميته.. بانسانيته...

ولذلك فان الجسد غير مسئول عما يفعل، غير مسئول عما ترتكبه النفس من أخطاء وإنحرافات، برغم أنه هو الذى يفعل، وهو فى أحيان كثيرة الدليل على الفعل، والشاهد عليه، أو على ماتقوم به النفس.

والنفس على هذا النحو ليست هى سجينة الجسد، بل هو سجينها وليس سجانها، لأنه فى الحقيقة لايحتاج غير مايجعله حيا سليما معافى، لايريد غير اشباع حاجاته البيولوجية القليلة جدا، قياسا إلى حاجات النفس التى تطلبها منه، لايريد غير الاعتدال والتعفف والفضيلة التى تجعله أكثر صحة وجمالا وبهاء.

لكن النفس فى أحيان كثيرة لاترضى بهذا القليل، وترفض الاعتدال بل هى بتملكها للجسد تسعى أحيانا جاهدة لأن تستخدم جميع امكانياته البيولوجية والفسيولوجية والوجدانية، العادية والمعنوية، وبكل طاقته، بكل مافى ذلك من تطرف وشطط وغلو، لتشبع نهمها وجشعها وجوعها المصطنع.

والنفس لاتخضع للجسد أو تستكين إلا مكرهة مجبرة، عندما

لايستطيع الجسد - فسيولوجيا أو بيولوجيا - أن يفعل، أو يعجز عن تلبية مطالبها واحتياجاتها، كأن يكون منهوكا، ضعيفا، سقيما مريضا، وعندها فقط تستسلم النفس له، وتستكين، بل قد يصيبها بعض مايصيبه من ظواهر وأعراض وأمراض، لأن أمراض الجسد العضوية قد تتحول أو تتسبب فى بعض الأمراض النفسية، وكذلك الأمراض النفسية قد تتحول أو تتسبب فى بعض الأمراض الجسدية.

والنفس لذلك السبب تسعى دائما وبشتى السبل للاحتفاظ بصورة وقوة الجسد، فتجهد نفسها فى المحافظة عليه من الضعف والمرض، ومما قد يعيقه عن الفعل والحركة، ومما قد يشوه أو يفسد نقاءه ورونقه وجماله. ولذلك «يبقى الإنسان مشدودا لكل تحولات الجسد، ويساهم فى تغيير صورة جسده.» (1)

---

1) هشام الحاجى - الجسد - نصوص مترجمة (من بحث مى جبران) ص 12 - دار نقوش عربية - تونس.

الفصل الثانى

العقل

« الصورة الثانية »

العقــــل

« الصورة الثانية »

ثم يعرف الإنسان بعقله (من خلال عقله) وتلك هى الصورة الثانية التى ندركها عن إنسان ما، بعد صورة الجسد، وهى صورة أدق من الأولى (من صورة الجسد) وأكثر تفصيلا ووضوحا منها، لكنها برغم ذلك لاتدرك من الوهلة الأولى، لأنها لاتظهر للعين مباشرة، كما هو الحال بالنسبة للجسد، لكن الذى نراه منها وندركه هو أثرها فى الواقع (أثرها المادى أو المعنوى) وما يترتب عن هذا الأثر فى الواقع من أحكام وأفعال وأقوال.

إذ ليس فى الامكان معرفة مكان العقل من الجسد، كمادة (كعضو) من الجسد، يمكن أن يشار إليه على أنه هو العقل، كما هو الحال بالنسبة للقلب، مثلا. لأن العقل ليس سوى مجموعة علاقات بين ظاهرات عصبية، ذات قدرة على التفكير فى مجموعها، أو منظومة علاقات معقدة تعقيدا يجعلها لاتدرك في مجموعها ولكنها قد تدرك كأجزاء، كفرادى عصبية. وهذا المجموع، أو هذه العلاقة الناظمة لهذا المجموع هو ما يمكن أن يطلق عليه مصطلح (عقل).

وقد تكون المراكز التى تقع فى الدماغ، فى الفص الجبهى هى منظومة العقل، أو هى مراكز التفكير فى الدماغ، التى يشكل

مـجـمـوعـهـا مـصطلح (عـقل)، لأن هذه المراكز هى من أكثر المراكز «غمـوضا وتـعقيدا، فـهى مراكز التظاهرات الفكرية جميعا، بالاضـافة إلى أنهـا مـراكز المهارات البـالغـة التـعـقيـد، ومكان التـخـيل وادراك النفس، وهى بالتالى مراكز تقدير ووزن الأمور والتصرف بما يقتضيه الـحال، ومكان هذه المراكز الفص الجبهى، فى الجانب الأيسـر، حيث مـركـز (بروكـا Broca's area) ومـراكـز ورنيكا Wernick's area)، ويقتصر وجود هذه المراكز على الإنسـان وهى غير موجودة فى أى مخلوق آخر ـ ولا حتى القردة الشمبانزى ـ ولذا فان جميع الحيوانات لاتتـفـاهم بالكلام، وتسـتـعـمل لـغـات مـادتهـا الأسـاسـيـة الاشـارات والحركات والصياح، والإنسـان هو المخلوق الوحيد الذى يتفاهم مع بنى جنسه باللغات والكلام»(١).

و «يعتقد أن الفص الجبهى هـو مـركـز الوظائف العـقليـة العليـا كالـحكم والتقدير والدليل المنطقى والتدبير ورسم الخطط، لأن الفص الجـبهى يسـتـقبل مسـارات كثـيـرة من المخ، كمـا يرسل اليه ايضـا مـسـارات أخرى كـثـيـرة والسـرير أو المهـاد Thalamus ـ وهو الذى يتلقى كل سيالات الحس من الجسم ماعدا حاسـة الشم، وهو المكان الذى تصدر عنه تلك السيالات أيضـا إلى قشرة المخ، حيث يتم تقويم الأحاسيس المختلفة وادراكها على الصور المألوفة المفهومة عندنا ـ هو

---

١) د. احـمـد عكاشـة ـ علم النفس الفسيولوجى ـ ص 43 ـ الطبعـة الثـامنة ـ مكتبـة الانجلو المصرية ـ القاهرة ـ 1993

المركز العظيم لاستقبال الأحاسيس، فاذا ماقطعت المسارات الواصلة بين الفص الأمامي والسرير، كما يحدث عند استئصال الفص الجبهي، أو في العلاج الجراحي لبعض الأمراض النفسية والعقلية أصبح المريض عاجزا عن إدراك السيالات الحسية، رغم أنه مازال يستقبلها فعلا، من ثم يشعر المريض بالألم كمؤثر محدد واضح، ولكنه لن يعود قادرا على إدراك ذلك المؤثر في صورة إحساس لايبعث على الارتياح، أو احساس (مؤلم). وفي نفس الوقت يؤدي أتلاف الاتصالات الموجودة بين الفصين الجبهيين وسائر أجزاء المخ إلى أضعاف الوظائف التي تعزى الى الفص الجبهي، كالمقدرة على التقدير الصائب، والتخطيط السليم.. وأي تلف في هذا الفص يؤدي إلى فقدان التحكم الاجتماعي والقيام بسلوك مخالف للنظم الحضارية السائدة، واضطراب في النواحي الانفعالية والسلوكية»(1).

وقد «أمكن استغلال الحوادث التي تحدث لبعض الأفراد وتؤثر في بعض الوظائف السلوكية لديهم كالعجز عن استخدام اللغة، أمكن استغلالها لتحديد المناطق المخية المسئولة عن تلف هذه الوظائف من خلال جراحات المخ. ويعود للطبيب (بروكا Broca) الفضل في اكتشاف بعض الوظائف النوعية للمواقع المختلفة من المخ من خلال

---

1) د. احمد عكاشة ـ علم النفس الفسيولوجي ـ ص 39 ـ الطبعة الثامنة ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة ـ 1993

عمليتين أجراهما على شخصين أصيبا بشلل فى النصف الأيمن من المخ، وارتبط به فقدان القدرة على الكلام، فقد لاحظ تليفا فى بعض المناطق من الجزء الأيسر من الفص الجبهى. مما جعله يستنتج المواقع المخية المسئولة عن استخدام اللغة فى الفص الجبهى، كما تبين أن الفص الجبهى يتولى كثيرا من الوظائف الأخرى مثل الوظائف المسئولة عن التخطيط والاستبصار وبعد النظر، وجوانب التفكير التحليلى والتنظيمى»(1)

واذا ماكان العقل فى علم النفس يقصد به الذكاء .Intelligence أو الذهن Intellect « فإن قلنا إن فلانا له عقل ممتاز، كنا نقصد أنه على درجة عالية من الذكاء والفهم، وإن قلنا إن فلانا ضعيف العقل فإننا نقصد أن ذكاءه قاصر وضعيف وإن قلنا إن فلانا مريض عقليا فإننا نقصد أنه مصاب بالجنون أو بالذهان (نسبة إلى الذهن)»(2).

وأن هذا الذكاء «هو قدرة عقلية عامة، تعتبر الوظيفة الأساسية للذهن أو العقل، وتتدخل فى كافة الأنشطة العقلية أو الذهنية بدرجات متفاوتة، وهو من أبرز مكونات الشخصية، وأشدها خطرا وأقواها وضوحا وتأثيرا»(3).

---

1) د. فرج عبد القادر وآخرون - معجم علم النفس والتحليل النفسى - مادة الفص الجبهى - دار النهضة العربية - بيروت

2) المصدر السابق - مادة عقل

3) المصدر السابق - مادة ذكاء

فإن الذكاء مع ذلك ليس هو كل العقل، بل هو برغم ذلك لايزيد عن كونه احدى قدرات العقل الاساسية مثلما هى الذاكرة، ومثلما هو التخيل، ومثلما هو الوعى والفهم والادراك، كعمليات عقلية تتم بصرف النظر عن نسبة الذكاء، وقوته، وحدته فى الإنسان.

وإذا ماكانت أجزاء المخ لاتعمل منفصلة، وإنما تعمل ككل، وتتميز بخاصية التكامل والوحدة، واذا ماكان العقل فاعلية ديناميكية تعتمد على التكامل الكلى للجهاز العصبى، خاصة فى مرحلة الوعى والإدراك، فان هذا «التكامل الوظيفى للجهاز العصبى هو الذى يحدد مستوى الذكاء، ولا يحدده عدد الخلايا، ولامدى تعقدها، وقد أجرى (هب) تجارب على الإنسان بإزالة بعض أجزاء الفص الجبهى الدماغى، فوجد أن هذا يؤدى إلى انخفاض النشاط العقلى العام للفرد، ولكنه لايؤثر على مستوى الذكاء وقد برهن (هب) على ذلك بحالة شاب عمره 16 سنة نسبة ذكائه 110 أجريت له عملية جراحية بتر فيها جزء كبير من الجانب الأيسر للفص الجبهى الدماغى، ورغم ذلك فقد ظلت نسبة ذكائه كما هى لم تتغير بعد إجراء العملية الجراحية»(1).

لأن الذكاء جزء من العقل، وليس هو العقل، منظومة من منظوماته وليس هو كل منظومة العقل، ثم إن الذكاء أصلا لاتحده شروط النظام

---

1) د. فؤاد البهى السيد ـ الذكاء ـ دار الفكر العربى ـ الطبعة الرابعة ص 118 ـ 1976 ـ مقتبسة من د. خليل معوض ـ القدرات العقلية ص 115 الطبعة الثانية دار الفكر الجامعى 1994.

المنطقى، ولايعترف بالمنطق وحدوده، واشتراطاته وقواعده وقوانينه، ولأن العقل أيضا منطق وأحكام، وقضايا وأنساق وكيفيات منطقية، والذكاء كثيرا مايخترق هذه القضايا والأنساق والكيفيات، ويتجاوزها، بل يعمل ضدها أحيانا، ليجبر العقل على استنباط قضايا وأنساق وكيفيات جديدة وهكذا......

وبرغم هذا كله، وبرغم أهمية العقل من الإنسان، الذى يجعله متفردا، ومتميزا عن غيره من المخلوقات، فإن العقل كصورة ثانية نعرفها عن إنسان ما بعد صورة الجسد لايعرف كل الإنسان، لايعبر عن الإنسان ككل، لايعبر عن الذات بكاملها، ولكنه يعبر فقط عن جانب من الإنسان، عن بعد من أبعاده، وهو الجانب العقلى، الذى به يعى الانسان، يفهم، يفكر، يتأمل، يحلل الاشياء والظواهر والعلاقات ويستنبط طرق وكيفيات العمل والإنتاج والبناء».

لأن عقل الإنسان جزء من وجوده، وليس هو كل وجوده، جزء من كينونته، وليس هو كل كينونته، جزء من حقيقته وليس هو كل الحقيقة. لأن العقل ليس جوهرا قائما بذاته.... ليس ذاتا قائمة في ذات الإنسان.... بل هو قدرة على التعقل، أو قوة للتعقل تابعة للنفس.... وإستقلال العقل وحياده لايعنى أنه كيان انطولوجى مستقل عن النفس والجسد، بل هو قائم بذاته معرفيا فقط، لأن الإنسان كيان انطولوجى واحد، النفس حقيقته، و«منذ الفلسفات الاعتقادية التقليدية إلى العقل (كانط) إلى التاريخ (هيجل) إلى علاقات الإنتاج (ماركس)

كان ثمة حقيقة مباشرة بسيطة منسية دائما، وهى أن الإنسان ليس عقلا فحسب، بل قد لايكون عقلا أبدا»(1)، لأن العقل لايستغرق كل جوانب الإنسان وأبعاده، ولايستغرق النفس بجسدها ووجدانها ونزوعها، وبعقلها (ذاته) ولاتغنى معرفة العقل (أن نعرف العقل) عن معرفتها، لأن النفس تخرج عن دائرة العقل فى فعلها وسلوكها فى أحيان كثيرة، فتهرب من قيوده وأحكامه، من حججه وبراهينه، وهى لاتخضع له إلا بمحض اختيارها وأحيانا لاتخضع له بأى مقدار، لأنها هى التى تستغرقه، هى التى تملك الإرادة، إرادة الفعل، بل إرادة تحقيق الفعل» والإرادة أوسع نطاقا من الذهن، وبالتالى فان الذهن لايستطيع أن يحتوى كل موضوعات الإرادة»(2)، ولأن الفعل «لايتحقق إلا بالإرادة التى تصدر عن النية والقصد والأصرار، الذى يعبر عما بالنفس من موجهات ودوافع ارادية واعية، والارادة من جهة أخرى لاتتحقق إلا بتحقق الفعل وهى - بهذا المعنى - ليست من العقل فى شىء، برغم انها تتوسل به لتحقيق مقاصدها، وتبرير أفعالها، وهى لاتخضع له بحال من الأحوال، إلا طائعة مختارة، فتتقيد بما يكشفه لها من خير فتقبل عليه، أو من شر فتتجنبه، أو من خطأ تتحاشاه، أو من صواب تقدم عليه، دون أن يرتب ذلك أى إلزام له عليها»(3).

---

1) مطاع صفدى - نقد العقل الغربى - ص 119 - مركز الإنماء القومى - بيروت 1990.

2) ديكارت - التأمل الرابع - مقتبسة من مقدمة علم الاستغراب - حسن حنفى ص 185 - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت 1992.

3) سالم القمودى - التغيير - ص 45 - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان 1996

ومثلما «المنطق لايستغرق الواقع وإنما هو جزء بسيط منه»(1) ومن هنا تأتي احتمالية العلم، بل احتمالية فهم الإنسان للعلم، فكذلك العقل في الإنسان لايستغرق الإنسان، ومن هنا أيضا تأتي احتمالية فهم الإنسان للإنسان، بل فهم الإنسان لنفسه قبل ذلك» وهذا ليس انتقاصا لقيمة المنطق، وإنما هذا يعبر عن حدود المنطق ،ومداه، وعن خطوط تماسه مع الفكر، ويظهر بأن الفكر أوسع من المنطق ومن العقل وقواعده: فالفكر يعتمد اللغة الطبيعية أما المنطق أو العقل فيعتمد على النمذجة، وعلى اللغة الشكلانية والاصطناعية (كارناب).والفكر أرحب من المنطق والعقل، وهذا ماحدا بهيدجر ليقول: على الفكر أن يفكر فكره، أي أن يتفكرن، ولم يقل على العقل أن يعقل عقله»(2).

لأن المرء قد لايقنع بما يزوده به عقله من إقناع، بل هو يطلب الوصول إلى اليقين، والأول من شأن العقل، أما الثاني فهو من شأن النفس، و«تخطي الإقناع إلى اليقين يؤدي بالضرورة إلى قلب العقل إلى لاعقل، وإغراق العقل الفردي فيما هو غيره»(3). والنفس إذا ما أتاها اليقين إنتهى دور العقل فيما أتاها اليقين به فلا تعد النفس في حاجة إلى تعقل ماتيقنته، وإذا «لم يقنع المرء بما يزوده به عقله، ويلح في المطالبة بما لايستطيع ذلك العقل الفردي أن يحققه له، حينذاك

---

1) د. سامي أدهم - مابعد الفلسفة - ص 16 - دار كتابات - بيروت 1996

2) المصدر السابق ص20

3) عبدالله العروي - مفهوم العقل - ص 82 - المركز الثقافي العربي - بيروت 1996 .

ينقلب على العقل، ويتحول إلى حكيم فيلسوف، أو زنديق بالطنى، أو متصوف أباحى»(1).

وقد يؤدى الانقلاب على العقل إلى أن يتحول المرء تحولا سلبيا فيعطل عقله ليصبح تابعا لغيره، ينشد عنده مايمكن أن يرضى تعطش نفسه إلى اليقين الذى لم يستطع العقل أن يوفره له. بل هو قد تحول الى عاصب أو متعصب لعقل غيره، أو لما يوفره له عقل غيره من إقناع.

وبالتالى فان الإنسان ليس عقلا، بمعنى أن الإنسان لايقوده عقله (قيادة سيطرة وأحكام) لأن العقل لايستغرقه، بل هو يفلت منه ويعمل بغير أحكامه، بل ضد أحكامه أحيانا، أى أن العقل ليس هو المسيطر على الانسان، ليس هو المسير للإنسان (التسيير الإرادى). أفعل أو لاتفعل - بصيغة الأمر - العقل يقول: أفعل أو لاتفعل بصيغة المنطق: إذا كان... فإن... أما... أو... الخ.

فالعقل لايفعل، ولاينفعل، وبالتالى فهو لايريد، ولايملك لذلك السبب أن «يكون بمثابة سلطة عملية، أعنى سلطة لها نفوذ على الإرادة»(2) ولكنه هو الذى يرسم كيفيات الفعل، ويضع اختيارات تحققه، ويبين خطأ أو صواب هذه الاختيارات، والنفس بعد ذلك هى

---

1) الغزالى - المنقذ من الضلال - مقتبسة من عبدالله العروى - مفهوم العقل ص83 - المركز الثقافى العربى - بيروت 1996

2) كانط - اسس ميتافيزيقا الأخلاق - ترجمة د. محمد فتحى الشنيطى - ص 58 دار النهضة العربية - بيروت 1970.

التى تختار، وهى التى تفعل، وهى التى تنفعل، وهى التى تريد، رضى العقل بذلك الاختيار أم لم يرض، وافق منطقه أو خالفه، وهو هو سر حياد العقل واستقلاله عن النفس، فى حكمه وفى منطقه، ومصدر تقويمه لأفعالها وسلوكها، ولو لم يكن العقل كذلك لما كان فى إمكانه أن يقول (لا) وأن يلوم وأن يعتب، وأن يكون مصدر هدى ونصح وإرشاد وحكم وتقويم.

فالإنسان إذن لايقوده عقله، بل تقوده نفسه (قيادة سيطرة وأحكام) «صحيح أن العقل بما هو أداة تفكير هو أداة تمييز أيضا بين الخير والشر والخطأ والصواب والصحة والفساد، وهو الذى يصوغ المبادىء والأحكام والقيم والمعايير المقننة لذلك، وبالمنطق والحجة والدليل والبرهان، وهو بذلك يساعد على الاختيار، وإتخاذ القرار المناسب، بل يقرر مايجب عمله، ويحث عليه، بما يضعه من أسباب ومبررات، لكنه مع ذلك لايملك الاختيار... الفعل... لايملك سلطة تنفيذ القرار»(1).

لأن العقل لايملك تحويل مايقدمه من تصورات ومفاهيم وأنساق وكيفيات عقلية الى وقائع وأحداث وعلاقات، بل إن «العقل لايملك إلا السكوت أو الاذعان لإرادة الإرادة، التي لاسبيل له عليها إلا أن يحلل ويفسر، وينظر ويشرع ويقنن، لعلها تستجيب له عن تواضع وعرفان

1) سالم القمودى - العودة إلى الاصل - ص16 - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان - مصراتة - 1992.

لا أكثر، فإذا ما عن لها أمر من الأمور، وإرادته، وكان فى إمكانها أن تفعله، فعلته، حتى لو عقبه ندم وخسران»(1).

والنفس عندما تفعل ذلك لاتبرىء العقل من فعلها، بل تشركه فى هذا الفعل، وفى مايترتب عليه، فتستغله وتبتزه ليرسم لها كيفيات الفعل، وطرق التنفيذ، ووسائل التبرير، عندما يحتاج فعلها إلى تبرير وهى بذلك تقضى على حياد العقل، بل تكرهه على الانحياز إليها ليكتسب الفعل بذلك طابعا عقليا تبريريا، وتقتنع به، أو تقنع به غيرها.

---

1) سالم القمودى - العودة إلى الاصل - ص16 - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان - مصراتة - 1992.

الفصل الثالث

استخدام العقل

« العقل بين الحياد والانحياز »

استخدام العقل

«العقل بين الحياد والانحياز»

الفعل لا ينبثق إلا عن معنى، عن فكرة، عن قصد ولا يتحقق إلا بكيفية يستنبطها العقل، أو يظهرها، من الوعى، من الخبرة، من حصيلة المعارف والعلوم والفنون والآداب التى حصلتها النفس فاكتسبتها، واستقرت فى ذاكرتها. لكن هذه الكيفية تختارها النفس من بين كيفيات أخرى، يمكن أن يكشف عنها العقل لتحقق الفعل فى الواقع ويتأسس هذا الاختيار على الهدف أو الغاية التى تريد النفس تحقيقها.

ومن خلال هذا المعنى أو القصد دون غيره تبدأ عملية استخدام العقل، أى تبدأ عملية التفكير لتحويل هذا المعنى أو الفكرة إلى فعل إلى واقع مادى أو معنوى، تبدأ عملية بناء كيفية للتطبيق تترتب على المعنى الذى انطلق منه العقل لصياغة كيفية أو خطة عمل تقوم به النفس بعد ذلك، يحقق هذا المعنى بشكل واقعى عملى. بحيث أن العقل لو انطلق من معنى أو فكرة أو مفهوم أو مبدأ آخر مغاير للأول لتغير سير عملية التفكير، ولتغيرت بالتالى الكيفية التى يرسمها العقل ولتغير تبعا لذلك أسلوب تنفيذ أو تطبيق تلك الكيفية المغايرة.

فكيفية الاستخدام تقوم على المقدمة الأولى لعملية التفكير (أى عملية تفكير، لأى فعل) وهى المقدمة الأساسية التى تفرضها الغاية

المتوخاة من الفعل، والتى يترتب عليها تصور نتيجة الفعل، وكيفية تحقيقه عمليا باستخدام كيفية ما يخطط لها العقل فى عملية تفكيره لتحقيق تلك النتيجة.

وإذا كان «استخدام العقل هو التفكير على إطلاقه، فإن التفكير منه ما هو عقلى خالص، متعلق بالنظر المجرد، ومنه ما هو متعلق بالعمل أى بالفعل والتطبيق والممارسة. ولو جاز لنا تقسيم العقل إلى عقل نظرى وعقل عملى، كما يقول بذلك الغزالى والفيلسوف الألمانى (كانط) وغيرهم من الفلاسفة الذين ميزوا بين التفكير النظرى والتفكير العملى فإنه يمكن القول بأن الفكرة هى من شأن العقل النظرى أو العقل الخالص أما تطبيقها فهو من شأن العقل العملى. فهذا الجانب من العقل (العقل العملى) هو الذى يختص بتطبيقات الفكر النظرى (الأفكار) وهو الذى يرسم لها الكيفيات المناسبة لتحويلها من أفكار مجردة إلى واقع محسوس.

أما طرق استخدام العقل التى نعنيها فى هذا المجال فهى طرق التفكير التى يقوم بها المستخدم للعقل من أجل وضع سياق منطقى عملى لكيفية تطبيق فكرة ما»(1). أو تنفيذ عمل ما، أو القيام بفعل من الأفعال لإشباع رغبة، أو حاجة، أو تحقيق قصد مادي أو معنوى.

وتغيير هذه الطرق أو الكيفيات هى عملية تقوم أساسا على إحداث

---

1) سالم القمودى - اغتصاب التطبيق - ص 17- الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان - 1994.

تغيير في اتجاه العقل نحو تحقيق هدف بعينه، بكيفية ما، بدلا من كيفية أخرى، أو بكيفية دون غيرها. انطلاقا من مقدمات تكون هى الوسائل التى يتوسل بها العقل لرسم كيفية الفعل أو التطبيق، أو كيفية الوصول إلى الغاية المتوخاة.

ولذلك فإن (كيفية استخدام العقل) قضية تختلف عن قضية (كيف يعمل العقل) لأننا هنا لا نتكلم عن نظرية في المعرفة (كيف يعرف العقل)... كيف نعرف، وإلى أى حد نعرف؟ ولكن نتكلم عن استخدام هذه المعرفة.. كيف نستخدم العقل كأداة للتفكير العملى (بعد حصول المعرفة) لوضع أنساق منطقية وكيفيات وخطط عملية لتحويل هذه المعرفة، أو ما تختاره النفس منها إلى وقائع وعلاقات عملية واقعية.

لأن هذا الاستخدام لا يقوم على العقل وحده، أو بالعقل وحده ولكنه يخضع للنفس واختيارها، فالنفس «هى التى تملك السلطة العملية على الإرادة، وهى التى تخضعها طائعة مختارة أو مجبرة مكرهة لما أستقر فيها من مبادىء وأحكام وقيم ومعايير صالحة أو فاسدة، حتى إذا ما كانت صالحة خيرة كانت الإرادة كذلك صالحة خيرة، وإذا ما كانت سيئة فاسدة، كانت الإرادة كذلك سيئة فاسدة» (1) لأى الإرادة «هى وليدة ما بالنفس من دوافع وموجهات ورغبات وميول»(2).

أما العقل بما هو عقل فهو محايد، وكيفية استخدامه هى التى

---

1) سالم القمودى - التغيير - ص 47 - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان 1996

2) المصدر السابق - ص 48.

تجعله ينحاز إلى شيء دون آخر، إلى منهج دون آخر، إلى علاقة دون أخرى، أو تجعله محايدا، منطقا خالصا.

والحياد العقلي مثل الحياد العملي - هكذا يجب أن يكون - غير أن الحياد العملي يتيسر ضبطه وتدقيقه، أما الحياد العقلي فهو يختفي خلف حجب النفس، ووراء أستار الإرادة، وهو لذلك السبب صعب الضبط، عصي على التدقيق.

والحياد العقلي حياد سلبي، لأن العقل لا يملك القوة العملية الفسيولوجية للمحافظة على حياده، عندما تحول النفس ما يقدمه من وعي إلى وقائع وأحداث وعلاقات، بل إن العقل لا يملك إلا أن يقدم هذا الوعي للنفس، أما استخدامه فهو ليس من شأنه، بل من شأنها هي. ولذلك فهي سرعان ما تجعل الوعي ينحاز إليها، غير عابئة بحياده، بل غير عابئة بحياد العقل قبل ذلك. بل إن قدرة العقل على التفكير وعلى استنباط كيفيات جديدة بفعل تراكم الوعي وازدياد المعرفة هو الذي يدفع النفس إلى ابتزازه وأستغلاله، وتوظيف أمكانياته لخدمة أغراضها وأهدافها وتحقيق طموحاتها باسم العقل.

فالنفس هي التي تضفي على العقل قدرا من الذاتية SUBJEC-TIVITY * عندما تكسر حياده فتجعله ينحاز إليها.. إلى رغباتها

---

* «تقييم الأمور أو الظواهر أو الأحداث أو الأشياء أو الأشخاص تقييما متأثرا بذاتية الباحث، وبما تنطوي عليه من ميول واتجاهات وعواطف وتعصب يعميه عن اكتشاف الحقيقة المجردة ورؤيتها بوضوح» - معجم علم النفس والتحليل النفسي - مادة ذاتية.

وأمانيها.. إلى أهدافها وغاياتها. ونحن «إذا ما تأملنا مليا العلاقة بين العقل والأهواء في حدود تجربتنا المباشـرة أدركنا أن الحيلة التى تعيش فينا ليست حيلة العقل، وإنما هى حيلة الهوى»(1). ولأدركنا أيضا أن العقل «لا يستطيع دون نفى نفسه أن يتحول إلى صانع آراء تخدم مصلحة جماعة دون غيرها، لأنه فى ماهيته يطلب الحقيقة لا المصلحة أو بالأحرى الحقيقة قبل المصلحة»(2).

وبذلك تتميز الإرادة عن الوعي، والفعل عن المعرفة، والنفس عن العقل، والذاتية عن الموضوعية، وبذلك أيضا يتميز الوعى عن اللاوعى، والشعور عن اللاشعور، والعقل عن اللاعقل.

فالمبدأ «الذاتى للفعل الذى يتخذه الكائن العاقل قاعدة له (يبين كيف ينبغى أن يعمل)، أما المبدأ الموضوعى فهو (يبين كيف يجب أن يعمل)»(3). والمبدأ الأول هو ما تريده النفس ويصدر عن الإرادة الذاتية للفرد، كما تريد هذه الإرادة أن يكون والمبدأ الثانى هو المبدأ العقلى للفعل، أو الكيفية العقلية المحايدة للفعل كما يجب أن يكون.

لكن النفس هى التى تريد.. هى التى تختار.. هى التى تفعل وفعلها «لا يصدر عن المعرفة (عن مجموع المعرفة) التى بالنفس، بل يصدر عن الموجهات والدوافع أو الأنساق والأنماط التى تلخص

---

1) ناصيف نصار - مطارحات العقل الملتزم - ص100 - دار الطليعة - بيروت 1986
2) المصدر السابق - ص 107.
3) كانط - أسس ميتافيزيقا الأخلاق - ترجمة د. محمد فتحى الشنيطى - ص 68 دار النهضة العربية - بيروت 1970.

وتركز جزءا من الفكر الذى تحوزه النفس وتحتويه، أو تتحصل عليه وتكتسبه من خلال سعيها فى الحياة، ومن خلال خبراتها التى تدركها عبر هذا السعى. وهو الجزء الذى تستخلصه النفس لنفسها، والذى يعبر عما بها من عوامل وعناصر حضارية: ثقافية، اجتماعية، علمية، وما بها من دوافع وموجهات واتجاهات نفسية، تتشكل باستمرار على هيئة أنساق وأنماط من الأحكام والمبادىء والقيم والمعايير تحوز على درجة من الصحة والصواب عند النفس، بحيث تصبح أساسا لتقويم الإنسان للأشياء والأفعال والعلاقات، وتقديره لها، ومصدرا لمبادئه وأحكامه التى يسلم بها، ومنهجا يقود خطاه، ويحدد معالم أفعاله وتصرفاته»(1).

أما العقل فهو «يعى، يفهم، يفكر، يدرك، يعرف، ينصح ببرهان وحجة، لكنه يعجز عن إجبار النفس على فعل شىء لا ترغب فى فعله، بل إن النفس هى التى تحدد كيفية استخدام العقل، عندما تطغى عليه، لأنها وهى فى طغيانها، أو وهى فى أوج طغيانها تريد كل شىء، وبأى شكل أو كيفية كانت، لا تهمها فى سبيل ذلك الوسيلة، بل تعمى عنها، فلا ترى أمامها غير الغاية.. الغاية وحدها»(2).

ولأن النفس هى التى تستخدم العقل على هذا النحو فإن «طرق استخدام العقل تختلف وتتفاوت من إنسان إلى آخر، بحسب

1) سالم القمودى - التغيير - ص 48 - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان - 1996

2) المصدر السابق - ص 46

الاستعدادات والإمكانات الفكرية والمادية، وكذلك بحسب النزعات الذاتية للأفراد، والظروف المادية الخارجية المحيطة بهم. وتتحكم فيها (أى فى هذه الطرق) عوامل نفسية وثقافية عديدة، متشابكة ومتداخلة، حتى أنه ليصعب على المستخدم للعقل فصلها وتحييدها، بل معرفتها قبل ذلك، وإدراك دورها السلبى الكبير والخطير على طريقة استخدام العقل، والخروج به عن حياده المنطقى العلمى الموضوعى»(1).

وبالتالى فإن «أى استخدام للعقل فى قضية ما قد يختلف عن غيره من الاستخدامات عند عقل آخر، فى نفس القضية، بل قد يختلف استخدام العقل الواحد من كيفية إلى أخرى فى ذات القضية إذا ما تغيرت المنطلقات الفكرية والدوافع الواقعية الموضوعية والمؤثرات الذاتية للمستخدم للعقل»(2).

كما أن القدرة على استخدام العقل واستنباط كيفيات الفعل وأنساق التطبيق تتوقف على درجة الوعى، وقدر المعرفة وحصيلة الخبرة وتراكمها وتنوعها الذى يفتح أمام النفس آفاقا متنوعة ومتجددة، ويهيىء فرصا جديدة للاختراع والابتكار والإبداع، ويضفى على الواقع والحياة ألوانا جديدة من التصرف والسلوك ليتغير بذلك نمط العيش وأساليب العمل والفعل والتفاعل مع الآخرين ومع الواقع المحيط. وبقدر هذا كله يتعدد استخدام العقل، وتختلف

---

1) سالم القمودى - اغتصاب التطبيق - ص 15 - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان - 1994.

2) المصدر السابق - ص 17

كيفيات الفعل والتطبيق، ويتفاوت الابتكار والإبداع، لاختلاف «الصياغات العقلية العملية لسياق التطبيق، لأى فكرة من الأفكار، أو قضية من القضايا بحسب المبادىء والقواعد العقلية التى ينطلق منها المستخدم للعقل من أجل وضع كيفية عملية لممارسة فعل ما فى الواقع. أو من أجل نقل المفاهيم والتصورات إلى وقائع عملية مادية أو معنوية، وكذلك بحسب التأثيرات الذاتية والاشتراطات الموضوعية للواقع المحيط بالتطبيق» (1).

فـ «القضية الواحدة، بل الفكرة الواحدة، قد تتخذ أشكالا أو أساليبُ متعددة فى تطبيقها نتيجة لذلك، ودون أن يلحقها أى تغيير أو تحوير أو تعديل فى جوهرها، وذلك بحسب استخدامات العقل واختلاف هذه الاستخدامات من شخص إلى آخر، وبحسب الدوافع والمؤثرات الذاتية والظروف الموضوعية السائدة فى الواقع والتى قد تتحكم فى التطبيق من قريب أو من بعيد»(2).

لكن هذه الكيفيات أو «الأساليب المتعددة لتطبيق الفكرة الواحدة أو القضية الواحدة لن تكون صحيحة كلها، لأن كل أسلوب تطبيق منها اعتمد نمطا معينا من التفكير، واستخداما للعقل يختلف عن غيره، بل إن أسلوبا تطبيقيا واحداً ـ بالضرورة ـ من بينها يكون هو الأسلوب الصحيح للتطبيق»(3) وهو الأسلوب الذى ينتج عن الاستخدام المحايد

1) المصدر السابق ـ 17.
2) سالم القمودى ـ اغتصاب التطبيق ـ ص 18 ـ الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ـ 1994.
3) المصدر السابق ـ ص 18

للعقل، الاستخدام الموضوعى الذى ينفى أى انحياز للأهواء، وبالتالى ينفى أى ذاتية عن عملية سير التفكير لرسم أنساق وكيفيات الفعل والتطبيق.

وهذا الاختلاف فى كيفيات استخدام العقل هو مصدر التفاوت بين المجتمعات والحضارات والشعوب، خاصة فى مجال العلوم الإنسانية وتطبيقاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ونحن عندما نحاول أن ننسب العقل أو نلحقه ببيئة ما، أو مجتمع أو حضارة ما ونقول مثلا: العقل العربى... العقل الغربى.... العقل الأوروبى.... الخ فإننا نعنى بذلك طريقة ذلك المجتمع أو تلك الحضارة فى استخدام العقل، وقدرتها على المحافظة على حياده، وعلى موضوعية أحكامه، أو الزج به فى متاهات الانحياز والذاتية.

وإذا ما كان العقل هو الذى يستنبط كيفيات تطبيق الأفعال، وهو بهذه الصفة «الشرط الدائم لكل الأفعال والإرادية التى يظهر فيها الإنسان وكل فعل من أفعاله متعين فى طبع الإنسان الأمبيرى حتى قبل أن يحصل»(1) إلا أن هذه العملية منطقية صورية، وليست عليه واقعية عملية. بمعنى أن المتعين هنا هو الكيفية المجردة وليست إرادة الفعل المادى.

لأن العقل لا يملك فسيولوجيا وعمليا تحويل كيفية ما إلى فعل

---

1) أمانويل كانط- نقد العقل المحض- ترجمة يوسف وهبه- ص 281 مركز الانماء القومى- بيروت.

متحقق في الواقع، كما أنه لا يملك إيقاف فعل أو منعه قبل أن يقع إذ يقف العقل عند حدود الفعل لتبدأ الإرادة عملها، حتى إذا ما تحقق الفعل تحققت الإرادة، وتحققت بالتالي الكيفية التي اختارتها الإرادة دون غيرها.

إذ أن العقل رغم حريته و«إلى هذه الحرية إنما يستند وجود العقل الذي هو ليس أداة سلطة دكتاتورية»(1). لا يملك السلطة العملية على الإرادة، لا يملك سلطة تنفيذ الفعل، أو عدم تنفيذه. ولذلك فإن «القوى اللاعقلية في الإنسان تعمل باستمرار، وتحت أشكال متباينة للسيطرة على سلوكه، وعلى حرية العقل ونموه. فلا راحة مستقرة، ولا مكاسب نهائية، في ما يبدو لنا انتصارات أو انجازات أكيدة للعقل في حاضر المجتمعات والحضارات. هذه الانتصارات أو الإنجازات الأكيدة تحيط بها وتهددها أو تضغط عليها وتؤثر فيها طبقات من الدوافع اللاعقلية الظاهرة والمستترة»(2).

ولعل عدم الاعتراف بهذا التداخل بين العقلي واللاعقلي، بين ما يختص بالعقل وما يختص بالنفس من أفعال وأحوال، الذي يأتي كنتيجة لعدم التمييز بين العقل والنفس، والمزج بينهما، هو أهم ما يوجه استخدام العقل ويؤثر فيه، ويصبغه بالذاتية، وهو أيضا السبب الأساسي في فقدان العقل لحياده المنطقي، بل السبب الأساسي في

1) المصدر السابق - ص 358.

2) ناصيف نصار - الأيديولوجية على المحك - ص 37 دار الطليعة - بيروت 1994.

تجاهل الفكر الفلسفي لحياد العقل على مستوى التفكير النظرى، أو على مستوى التفكير التطبيقى.

فبدأ من (ديكارت) فى القرن السابع عشر تأصل المزج الكامل بين العقل والنفس، وأصبح ينظر إليهما على أنهما (واحد)، وأن هذا (الواحد) يشكل مع الجسد ثنائية (النفس - بدن)، (الصورة - المادة) (الجوهر - العرض)، وهى الثنائية التى شكلت البداية الحقيقية للفلسفة الحديثة بمختلف مذاهبها واتجاهاتها.

وبذلك تأسست الذاتية فى استخدام العقل، وتوجيه التفكير وجهة جديدة، نحو تحقيق غايات كان الفكر الفلسفى يصبو إليها فى ذلك الوقت فاختلط بذلك العقل باللاعقل، سواء أكان ذلك على المستوى النظرى المحض أم على المستوى العملى التطبيقى. ليمتد هذا الخلط بعد ذلك إلى الأخلاق والسياسة والاقتصاد والاجتماع، دون حدود تحده، أو قيود تقيده.

حيث أدى هذا المزج والتأصيل إلى انحياز كيفيات استخدام العقل إلى النفس وهواها، دون العقل وأحكامه، لتغير بذلك هذه الكيفيات من كيف إلى كيف. بحسب المقدمات التى تضعها النفس لينطلق منها العقل بعد ذلك فى تفكيره التطبيقى، وبحسب المعانى والمفاهيم التى تحددها الإرادة وهى تغتصب العقل اغتصابا لتحويلها إلى كيفيات عمل، وإلى وقائع، أو لتبرير ما تم تحقيقه منها، بكيفيات منطقية صورية تخدم أغراضها وسببا أيضا فى انحياز المعرفة بالكامل إلى

النفس، بوقوعها تحت سيطرة الإرادة شأنها شأن العقل.

وكنتيجة منطقية وواقعية لعدم التمييز بين العقل والنفس فقد العقل حياده المنطقي، بل توارى خلف النفس خادما مطيعا لها، يقدم أنساق التطبيق وكيفيات العمل ومشاريع الاحتكار، والاستغلال ليحقق لها ما تشاء وتهوى، بدأ من الحرية الفردية التي استباحت كل شيء إلى المنفعة الفردية التي استغلت كل شيء، إلى المنفعة العامة الخالية من أي معنى أخلاقي، إنساني.... دون قدرة على الحياد، لأنه فقد بذلك استقلالية أحكامه، فقد حياده كعقل، وانحاز بالكامل إلى النفس، ليشكل معها ثنائية (النفس - بدن).

وبذلك فقد العقل نفسه، باغترابه في هذه الثنائية التي قسمت الواقع الفلسفي فيما بعد (ديكارت) إلى «تيارين متباعدين متضادين:

الأول صاعد من (الكوجيتو) إلى أعلى، وله أسماء عديدة مثل: المثالية، الذاتية الرومانسية، العقلانية، الصورية.... الخ. والثاني نازل من الكوجيتو إلى أسفل وله أيضا أسماء عديدة مثل: الواقعية، الموضوعية المادية الحسية التجريبية... الخ»(1).

ويمثل التيار الأول ما يسمى بالاتجاه العقلي: فكر وامتداد، ويمثل التيار الثاني الاتجاه التجريبي الذي جاء «كرد فعل على الاتجاه العقلي، وعلى نسيان العالم والقضاء على الأشياء وتحويلها إلى

1) د. حسن حنفي - مقدمة في علم الاستغراب - ص 185 - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت 1992.

مجرد فكر وامتداد. انقلب من النقيض إلى النقيض، ومن الضد إلى الضد، فأصبح العالم ماديا، وأصبحت التجربة الحية مجرد انطباعات حسية»(1) وتنازل العقل فى هذا التيار التجريبى عن «بنيته الداخلية واستقلاله الذاتى بالرغم من وجوده كثورة خارجية، وآلة ناقدة، كان العقل مجرد جماع للحس وحصيلة للمدركات الحسية ومخزنا داخليا لكل ما يأتى من الخارج عبر الحواس»(2).

وبذلك تم المزج الكامل بين العقل والنفس بين التفكير والإرادة، بين الوعى والنزوع. بين المجال العقلى والمجال النفسى من جهة وبينهما وبين الجسد من جهة أخرى « بالتوحيد بين الروح والمادة والعقل والوجود، والمثالى والواقعى » (3). فتم بذلك الخلط بين العقلى والنفسى والجسمى فى الإنسان، وبات العقل والنفس والجسد أو الأمتداد والتفكير والنزوع أو الوجود والفكر والإرادة مترادفات يحل كل منها محل الآخر، ويعبر عنه، ويلغى كل منها الآخر، فيأخذ مكانه ويؤدى وظيفته، فأصبح العقل مسئولا عما ترتكبه النفس من أخطاء وانحرافات بل مسئولا أيضا عن تقديم التبريرات الكافية لكل ما ارتكبه الإنسان فى حق نفسه من جرائم وحروب ودمار باسم العقل. «فالذات التى تلاحظ وتقيس وتحسب، فى المنهج العلمى، والذات التى تنشغل بأمور الحياة اليومية كلتاهما تعبير عن نفس الذاتية، أى

---

1) المصدر السابق - ص 99.

2) د. حسن حنفى - مقدمة فى علم الاستغراب - ص 454 - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت 1992.

3) المصدر السابق - ص 356.

الإنسان... ولم يكن المرء بحاجة إلى الانتظار حتى هيروشيما كيما تتفتح عيناه على هذه الهوية.... وكما حدث من قبل في كل الأحوال فإن الذات التي قهرت المادة تعاني من وطأة كشفها الثقيلة. ذلك لأن أولئك الذين يتحكمون في هذا الكشف ويوجهونه قد استخدموه في خلق عالم تعمل فيه أسباب الرفاهية المتزايدة في الحياة والقوة المتعاظمة للجهاز الانتاجي على إبقاء الإنسان في حالة عبودية أمام الوضع القائم»(1).

حدث ذلك لأن الإنسان بعد أن اكتسب المنهج العلمي فقد عقله.... فقد عقله بعد أن جعل من جسده وعقله ونفسه صورة واحدة بيولوجية، فسيولوجية خالية من الإنسانية، خالية من المعنى والقيمة.... فقد عقله بإسرافه في استخدام هذا المنهج ذاته، ومحاولة إخضاع كل شيء لهذا المنهج وتحديداته.... حتى عقله الذي اكتشف هذا المنهج وحدده.

ففقد الإنسان بذلك حياد عقله، بأن جعله خاضعا للأهواء والنزعات لاهثا خلف المنفعة واللذة، أسيرا محاصرا، يقدم ما يطلب منه، صاغرا ذليلا، حائرا تائها بين الحياد والانحياز متهما في هديه، وهو مكبل بأغلال الإرادة التي تمنع عنه نور الهدى، وحرية الحقيقة، ولم تترك له الفرصة ليقول كلمته فيما يحدث... بل تغتصب حياده اغتصابا، فتبتزه، وتستغله، وتنسب له أخطاءها وانحرافاتها، بعد أن

---

1) هربرت ماركيوز - العقل والثورة - ترجمة ص 25 من المقدمة

تصادر حريته، وتغتال أحكامه فتقضى على حياده... لتعم الذاتية نتيجة لذلك مجالات العلوم الإنسانية، السياسية، والإقتصادية والإجتماعية، ويشتط العلم فى سيره وتفسيره، ويتهور العلماء الذين يلهثون خلف الموضوعية فى البحث والتحليل، ويعتمدون الذاتية فى الاستخدام والتطبيق فتفتقد الحكمة فى ممارساتهم، وتطبيق نتائج أبحاثهم.. لتصبح الموضوعية هى الوسيلة والذاتية هى الغاية.

ولكن لا هدى للعقل إلا فى حياده، ولا حقيقة إلا فى حريته، ولا حرية للعقل إلا بتفرده، وتميزه عن الإرادة.. وتحرره من رغائب النفس وهواها....

وإلا، من سيحكم على أفعال النفس بالخير أم بالشر، بالصحة أم بالفساد، بالموضوعية أم بالذاتية؟

هل هى أحكام العقل التى طغت عليها أعمال النفس فأفقدتها حيادها أم هو الضمير... والضمير ليس سوى العقل فى حياده.....؟!!!!!

الفصل الرابع

النفس

« الصورة الثالثة »

النفـــــــــس*

«الصـــورة الثالثـــــة»

معرفة إنسان ما، معرفة حقيقية لن تكتمل إلا بمعرفته من نفسه (من خلال نفسه) طويته، سجيته، سريرته، نواياه. فالإنسان بنفسه لا بعقله، ولا ببدنه. ونفسه هى حقيقة ذاته وهى جملة هذه الذات، والتعبير الجامع لشخصه، وكينونته ووجوده.

تلك هى الصورة الثانية لمعرفة إنسان ما، وتلك هى الصورة الحقيقية، تلك هى حقيقته دون زخارف وأصباغ، ودون تمثيل واصطناع.

فالنفس هى التعبير الحقيقى عن الإنسان، وليس الجسد، أو العقل ونحن لذلك السبب كثيرا ما نصاب بخيبة أمل كبيرة فى بعض من نظنهم طيبين صالحين، استنادا إلى الحكم عليهم من خلال عقولهم، وما يصدر عنها من منطق محكم، وما تبديه من فهم سليم، وما تظهره من رأى سديد، أو الحكم عليهم من خلال أجسادهم، وما بها من تقاطيع وملامح تشع - فيما نرى - بالنبل والبراءة.

والنفس تكتسب هذا المركز من الذات بما تملكه من إرادة نافذة على الجسد، وبما تملكه من حرية واختيار تجاه العقل وأحكامه، فهى بتملكها للجسد تسيره كيف شاءت، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا،

* ليس من شأن هذا البحث - كما جاء فى التصدير - الدخول فى الجانب الميتافيزيقى للنفس، وحسبه الأثر الواقعى الذى تحدثه النفس لتحقيق وجودها. وقوة هذا الوجود وطغيانه على النفس

وهو لا يرفض لها أمرا إلا لعجز أو مرض يصيبه. وهى باستغراقها للعقل يمكنها أن تخرج عن دائرة أحكامه متى شاءت، بفعل قدرتها على الاختيار، وعلى تحقيق الفعل الذى تختار، مهما كان موقف العقل منه:

فهى قد تسمع لصوت العقل، فتمتثل لهديه، وتستجيب لندائه وتنفذ أحكامه، وترعى حرمة منطقه.

وقد لا تسمع له، ولا ترضخ ولا تستجيب إلا مجبرة مكرهة - ليس بفعل سيطرة العقل، ولكن بهديه - لتبين الضرر، ووضوح الخطر، حيث لا مفر منه (العقل) إلا إليه.

وقد لا ترضخ له مهما كلفها كبرياؤها من عنت ومشقة، بل قد تشتط فيما ترغب فيه، وما تريد أن تحققه، فلا تأبه للعقل، ولا تعير أحكامه التفاتا.

وقد تسعى إلى مهادنته، أو الوفاق معه، بل أبتزازه ليقنع بأعذارها ومبررات أفعالها.

وإذا ما صرفنا النظر عن التعريفات والمصطلحات لأى من العقل أو النفس، فإننا سنواجه بالمشكلة الأهم، المشكلة الأساس التى يترتب عنها الخلط أو الفصل، المزج أوالتمييز بين العقل والنفس، تلك هى مشكلة الاجابة عن السؤال الوجودى التالى:

إذا كان العقل ليس هو النفس، وهو لا يستغرقها، وإذا كانت مراكز التفكير ومراكز الفعل والحركة هى امكانيات للنفس، وليس أى منها

هو النفس، وإذا كانت النفس غير العقل، وهى التى تستغرقه، بل هى التى تقود الذات كلها، قيادة سيطرة وأحكام، فأين إذن توجد النفس فى الإنسان، أين النفس من الجسد. وما هو مرجعها الواقعى منه؟

ماديا، عضويا، لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال بالاشارة إلى جزء من الجسد على أنه هو النفس. إذ ليس فى الإمكان معرفة مكان النفس من الجسد، بتحديد جزء معين من الجسد على أنه هو النفس. وقد يعرف عالم الفسيولوجيا مراكز التفكير فى المخ.. وقد يعرف مكان البصر.. السمع.. الشم.. الحس... الخ، لكنه يعجز عن معرفة ما يربط كل ذلك فى منظومة واحدة، أو نسق واحد، هو الانسان بكامله.

فالنفس تستغرق الجسد كله، وهى حقيقته.. كينونته الوجودية.. وهى التى تقوده قيادة سيطرة وأحكام، من خلال منظومة الجهاز العصبى، بما فيها منظومة التفكير والنزوع والوجدان ومن خلال العلاقة الكلية التفاعلية بين النفسى والجسمى والعقلى.. بين مجموعة الظاهرات والسيالات العصبية والكيميائية والهرمونية التى تنتج عنها حركة الجسد كله، والتى بها تتحقق كينونة الكائن الانسانى الفرد فى الواقع، أى تتحقق الوحدة الحية البيولوجية العصبية الفسيولوجية، فتتحقق كينونة النفس فى الواقع كامتداد وتفكير وإرادة.

لكننا إذا لم ندرك حقيقة النفس، أو حقيقة ما يقود هذه العلاقة بين الظاهرات العصبية والسيالات الكيميائية لقصور فى المعرفة: لأن

العلم أو المنطق العلمى أو المنهج العلمى التجريبى' على وجه التحديد لم يستطع الوصول إلى حقيقة النفس الأنطولوجية لأن هذه الحقيقة لا يمكن أن تتحدد من المكونات البيولوجية المفردة، أو لأن وجود النفس غير قابل للبرهنة بالمعنى العلمى الدقيق المنطقى أو التجريبى، لأن وجود النفس يقع خارج مجال القانون الطبيعى (المادى)، أو لأنها ليست محل برهنة منطقية، واثبات علمى، لعدم امكانية ذلك أصلا بالنسبة للانسان لأن العقل لا يستغرقها، ووجودها يتجاوز حده، فإن هذا لا يعنى أن ننكر وجود النفس، أو أن ندمجها مع العقل، أو أن نمزج العقل بها، لمجرد أن ليس لها مرجع مادى واقعى، نراه بأعيننا، أو نلمسه بأيدينا. فى الوقت الذى تجبرنا فيه التجربة الحية يوميا على الاصطدام بهذا الوجود الذى يستغرق الإنسان بكامله: بجسده وعقله، بفعله وانفعاله، بنزوعه ووجدانه.

ولأن النفس لا تدرك ذاتها بذاتها، ولكن تدرك ذاتها بالعقل الذى يدرك النفس، ويدرك ذاته كمفارق للنفس، مستقل عنها (مفارقة منطقية، لا مفارقة مكانية، ولا مفارقة ماهية) ولأن العقل الذى به نعرف النفس لا يستغرق النفس، لا يستغرق الانسان جميعه، بجسده وعقله ونفسه، بل أن النفس تخرج عن دائرة فهم العقل وتحليله فى الكثير من شئونها وشجونها، فإن معرفة انسان ما معرفة حقيقية (معرفة العالم الداخلى للانسان) هى من الصعوبة بمكان، وهى فى جميع الأحوال معرفة احتمالية. لأن «الصعوبة الأهم فى فهم الشخصية الإنسانية تأتى من أنه يتعذر على الإنسان، أى إنسان، أن

يكون أوسع وأكثر شمولا من ذاته، بحيث يستطيع إحتواء نفسه، والاحاطة بها، والحكم عليها. وعلى ذلك فمهما كثرت الطرق والأساليب لفهم الإنسان، سواء كان ذلك فهم الذات أو الغير، فإن هذا الفهم سيظل قاصرا على الأحاطة بالإنسان بكامله، وسيظل الباب لذلك مفتوحا لمحاولة التشعب والاضافة إلى الفهم بطرق جديدة وأكثر دقة»(1).

ولأن الأمر كذلك، فنحن نحاول دائما جادين التعرف على ما بأنفسنا.. على العالم الداخلى فينا.. على الدوافع والموجهات التى تحدثها نفوسنا فينا، على الأثر الذى تظهره نفوسنا فى فعلنا وتفاعلنا.. فى أحكامنا وتقويماتنا وعلاقاتنا مع أنفسنا ومع الآخرين، ومع ما يحيط بنا من أشياء وموجودات.

ولعل أهم ما يمكن أن يعرف عن انسان ما هو معرفة ما بنفسه.. معرفة ما يوجه فعله ويقود سلوكه وتصرفه، ويحدد مواقفه واتجاهاته. «وأهم ما بالنفس مما يدفع إلى الفعل، أو يوجهه أو يحرض عليه - بعد دوافع الفطرة والغريزة - مما هو مكتسب بالتنشئة والتعلم، والتجربة والخبرة، والتفاعل مع الآخرين، ومع الواقع المحيط ويؤكد الثبات أو يهيىء للتغير فى الواقع الفردى أو الاجتماعى هو القيمة التى تضفيها النفس على الأشياء والأفعال والوقائع والعلاقات.. القيمة التى ترفع أو تحط من قدر الفعل، فتحث عليه، أو تنكره، أو الشىء فتطمع إليه

---

1) د. علي كمال - النفس - الجزء الاول - ص 98 - دار راسط للمطبوعات والنشر - بغداد - 1988.

النفس، أو تزهد فيه، أو العلاقة فتنفعل بها، وتتفاعل معها، أو تسكت عنها فترفضها، هو الحكم أو المبدأ الذى تعتنقه النفس، وتسلم به، وتجاهد من أجل تأصيله فيحدد لها المقاصد والغايات. هو المعيار الذى يرسم لها الطريق الذى تسلكه، والكيفية التى ترتضيها، والمنهج الذى تختاره لتحقيق تلك المقاصد والغايات.

ذلك ما يعبر فى الواقع عن حقيقة ما بالنفس، وما يستقر فيها من إدراك ونزوع، وما تنطوى عليه من موجهات ودوافع، ترسم معالم الفعل والتصرف والسلوك. وهو محل التغيير والتعديل، والأسقاط والأبدال أو التأكيد والتعضيد والتأصيل. لأنه منشأ الصلاح والفساد، والخطأ والصواب، والصدق والكذب، وسبب الأبداع والتقدم، أو الأنحطاط والتخلف فى الواقع الانسانى.

فإذا ما كانت الأنساق والأنماط التى بالنفس صحيحة صادقة كان الفعل صحيحا صادقا، وإذا ما كانت بعضها خاطئا فاسدا، كان بعض الفعل أو بعض التصرف كذلك خاطئا فاسدا!!(1).

لكن النفس من ناحية أخرى متقلبة، تملك امكانيات هائلة للمراوغة والخداع، تمكنها من «القيام بأدوار متناقضة، متعارضة، تجعلها تظهر غير ما تبطن، وتبطن غير ما تظهر وتقول غير ما تفعل، وتفعل غير ما تقول، وتأتى الأمر ونقيضه، والشىء وضده»(1). مما يجعلها فى صراع دائم مع العقل، مع منطق العقل فى حياده، الذى يرفض

1) سالم القمودى - التغيير - ص 43 - 44 - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان 1996.

التناقض والتعارض فى التصرف والسلوك، والتقاطع والتضارب فى المواقف والأفعال، ويسعى إلى السواء، والتناسق والأتساق، بحثا عن الرضا والأطمئنان والتوافق والتواصل مع الذات ومع الآخرين.

إذ لو أن «أفعالنا كانت دوما انبثاقات مفاجئة ومخيبة للرجاء فكيف يمكن أن تكون أية شخصية فى الديمومة؟ وأنى لى أن أثق بالآخرين، وكيف يستطيع الآخرون الوثوق بى؟ أليس من الواجب أن يوجد عبر تنوع الحوادث والأوضاع المختلطة بعض الأمانة مع الذات. وبدونها لا يمكن أن يكون الانسان موضوعا أخلاقيا؟ أن فى كل وجود انسانى جدلا، هو جل اللحظة والديمومة، وأن للحظة القرار دورا مميزا، ولكن جدتها مهما بلغ أمرها يجب أن ترتبط بسائر لحظات ديمومتى، حتى تؤلف معها خطا متسقا»(2). والا تصدعت الشخصية، وأصيب تواصلها بالآخرين بانقطاعات مباغتة، تجعل التعامل والتواصل مع هذه الشخصية أمرا لا يطاق، ولهذا فإن «كل انسان يباشر خطة دقيقة التعبير عن شخصيته»(3) ليحافظ على توازنه مع الآخرين، فى فعله وتفاعله، وفى أتصاله وتعامله معهم وليحتفظ بذلك بتقدير الآخرين له، واستمرار هذا التقدير.

والصراع بين العقل والنفس لا يهدأ، لأن النفس لا تستكين، بل هو لا يلبث أن يشتد بين الحين والآخر، خاصة إذا ما كانت النفس

---

1) المصدر السابق - ص 72.
2) روجيه ميل - المواقف الاخلاقية - ترجمة د. عادل العوا - ص 7 - 8 منشورات عويدات - بيروت - 1987.
3) مارى مادلين دافى - معرفة الذات - ترجمة سليم نصر - الطبعة الثالثة ص 11 منشورات عويدات - بيروت - 1983.

قلقة وتتمتع بذكاء، حاد متوقد، لا يهدأ، يزين لها فجورها بما يهيئه لها من فرص الهروب والانفلات من قيود العقل، من هديه من حججه، وبراهينه، من نصائحه وارشاداته، ويوفر لها فوق ذلك تبريرا لكل سلوك، ومخرجا لكل مأزق، ولكل فعل يكاد يوقعها في دائرة الندم»(1).

لأن الأنا الواعية ـ كما يقول (يونغ JUNG)* «تمر بخطر، هو خطر صيرورتها شخصية موهوبة تتمتع بطاقات نفسية، لذلك فمركب الشخصية الموهوبة هو أحدى المميزات المسيطرة على اللاوعى الجماعى والنموذج الأمثل يعرفه الأنسان القوى، إذ تمثل خلال كل حياة الانسانية فى أشكال متعددة منا: البطل، والرئيس، والساحر، والطبيب والقديس، والسلطان الذى يحكم الناس والأفكار....

والموهوب هو هذا الموجه للطاقة الديناميـة التى تكلم عنها (يونغ) فقال: إذا أغتصبت الأنا هذه الطاقة فأن المصاعب ستعترضها بصورة مفاجئة، وبقدر ما تكون الأنا موفورة النصيب من هذه الطاقة تكون المصاعب عسيرة. فلا تستطيع الأنا أن تكون مفهومة لدى الغير ومقبولة عنده. ومن هنا تبدأ الحاجة ماسة إلى اللجوء إلى عنصر من الشخصية لا يحدد، فيه تتصالح الأضداد، وتتلاقى المتناقضات فلا يعرف كيف يجد الأصطدام بين الخصائص الشخصية والمألوفات المجتمعية طريقه إلى هذا الموهوب»(1).

---

1) سالم القمودى ـ التغيير ـ ص 51 ـ الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان 1996.

* يونغ JUNG ص 149 – 150 منشورات عويدات ـ بيروت 1983

* يونغ JUNG عاالم نفس سويسرى ـ توفى عام 1961

والذات السوية (غير القلقة) تدرك هذا جيدا وتشعر بخطره عليها، فتحتويه قبل أن يحتويها، تستغرقه قبل أن يستغرقها، تتعالى عليه، وهى تدرك ما تفعل، وتشعر بما تقوم به. وفى هذا الفعل والشعور به تكمن قوة الشخصية وقدرتها على التوافق، وعلى إدارة الصراع الداخلى، والتعامل معه وعلى تواصلها مع الآخرين ومع الواقع المحيط.

لأن الذات السوية تدرك أيضا أن «الذكاء الحاد المتوقد إذا ما أفتقد الحكمة التى تلجمه، والمنطق الذى يشده إلى الموضوعية العملية، ويبعده عن الذاتية المفرطة في غرورها بذكائها، تحول إلى جنون (جنون العقل.. جنون الذكاء.. جنون العظمة..... جنون القوة... جنون الطغيان... الخ).

وإذا ما كان جنون المرء فى فقدانه لعقله، فأن جنون العقل فى فرط ذكائه... ولعل هذا ما يجعلنا نصف بعض مفرطى الذكاء خاصة المشاهير منهم: قادة، رؤساء، فلاسفة، فنانين، كتاب، أدباء، علماء..... الخ. بأنهم مجانين، وهم فى الحقيقة أذكياء ليس إلا.... هم فقط يتمتعون بذكاء حادّ متوقد لا يهدأ.. ذكاء أخاذ...»(2) لأنه ذكاء حاد متوقد، ومبهر مغر، ولأنهم متحررون من قيود كثيرة، يأبى غيرهم إلا أن يتقيد بها: الدين، الأخلاق، الحكمة، المعنى، المبدأ، ولا يشعر هذا الغير بقيمة لحياتهم ومعنى لوجودهم بدونها.

---

1) مارى مادلين دافى - معرفة الذات - ترجمة سليم نصر - الطبعة الثالثة.

2) سالم القمودى - التغيير - ص 52 - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان 1996

وهذا الذكاء الحاد المتوقد الذى تنقصه الحكمة، وهذا الأسراف فى التحرر من بعض ما يقيد هو فى الحقيقة «نقطة ضعفهم (تسلطهم طغيانهم الفكرى... الفنى.. الأدبى.. العلمى... الخ. بالرغم من أنهم يرون فيها نقطة تفوق وأمتياز، وتعال على الآخرين. بينما الآخرون - الأقل ذكاء فى نظر الأذكياء - يتفهمون ذلك تماما، ويدركون بالتجربة والخبرة، بالحنكة والحكمة أن الأذكياء لفرط توهمهم بأنهم الأذكى يرتكبون أخطاء وانحرافات منطقية خطيرة، تجعلهم أضحوكة ليس للآخرين فحسب، بل حتى لأنفسهم، ولكن بعد فوات الأوان»(1).

لأن الذكاء عندما يشتط على العقل تتوارى الحكمة خلف أستار الارادة، وأوهام النفس، لأن «الحكمة تتمثل فى السلوك أكثر من تمثلها فى المعرفة»(2). فيقفز الانسان بذكائه خطوات إلى الأمام، أو يكبو.. يتعثر.. أو يسقط ضحية طغيان ذكائه.

ولذلك فهم «يشفقون لهم، بل يتضاحكون، ويعجبون لهؤلاء الأذكياء، وكيف يتصرفون بغباء يصل إلى هذا الحد من الغرور... يصل إلى درجة الانتحار العفوى التلقائى. سواء أكان ذلك على مستوى الفكر (مستوى ما ينتجونه منه: فلسفة أدب، فن)، أم على مستوى الجسد: (إفراط فى الشهوة الحسية... أمراض شاذة غريبة يصابون بها نتيجة ذلك: فصام عقلى، تصدع فى الوعى، هوس فكرى

---

1) المصدر السابق - ص 52.

2) كانط - أسس ميتافيزيقا الاخلاق - ترجمة د. محمد فتحى الشنيطى - ص 76 دار النهضة العربية - بيروت 1970.

فنى يصل إلى حد الجنون الحقيقى أحيانا، أختلال فى بعض الوظائف الفسيولوجية). بسبب ما يقومون به، وما يفعلونه، وما يرتكبونه من أخطاء وانحرافات، فى حقهم، أو فى حق الآخرين. خاصة إذا لم يتمكن هؤلاء الأذكياء من تحقيق أحلامهم وأوهامهم وطموحاتهم وأمجادهم، التى يرون أنهم مؤهلون للقيام بها، وجديرون بتحققها لهم. وهم لا يتمكنون من ذلك غالبا، بسبب تطرف هذه الأحلام والأوهام والطموحات والأمجاد. وبذلك يختل التوازن النفسى العقلى لديهم، ويتشتت بين الذكاء والحكمة، بين العقل والارادة، ليفقد العقل حياده المنطقي، وتفقد النفس اطمئنانها وانسجامها مع ذاتها ومع الآخرين، ومع الواقع المحيط»(1).

والذات السوية فى إدراكها لهذا يكمن اطمئنانها، بل تكمن قوتها، وعزتها، ومنعتها، ولهذا فأن «الانسان الصافى الذات يعتبره من لا صفاء فى ذاته كبطل، بطل تقوم عظمته فى قدرته على أثارة الاعجاب وفى واقعه الذى لا يبدو متأرجحا مترددا أمام ما يكتشف»(2).

لأن الانسان ليس بذكائه، إذ «ليس بالذكاء وحده يحيا الانسان... ليس بالذكاء وحده يحقق أمانيه وطموحاته، بل به وحده يشقى الإنسان... يتوهم أنه الأذكى.. وأضحوكة أن يتوهم الإنسان أنه الأذكى.. وعار أن يتصرف وفق هذا الوهم»(1). أنما الانسان

---

1) سالم القمودى - التغيير - ص 53 - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان 1996

2) مارى مادلين دافى - معرفة الذات - ترجمة سليم نصر - الطبعة الثالثة ص 23 - 24 منشورات عويدات - بيروت 1983

بشخصيته بكاملها: بمواقفه واتجاهاته، بأفعاله وأعماله، بسلوكه وتصرفاته.

«وأكثر علماء النفس يستبعدون الذكاء وغيره من القدرات العقلية من بناء الشخصية، فإذا أرادوا الحكم على شخصية فرد أو قياسها، أقتصروا على صفاته الاجتماعية والخلقية والمزاجية، أى الانفعالية ليس غير. وحجتهم فى ذلك ما دل عليه التحليل العاملى، من أن معامل الارتباط بين السمات العقلية والسمات الخلقية ضعيف، أى أنه لا يتحتم أن يكون الشخص ذو المستوى العقلى العالى حسن الأخلاق أو ما وافق الشخصية من الوجهة الانفعالية، كما أن السمات العقلية تابعة بوجه خاص لتركيب الجهاز العصبى، وطبيعة نشاطه الفسيولوجى فى حين تكون السمات الانفعالية تابعة بالأخص لطبيعة السوائل العضوية بما فيها افرازات الغدد الصماء. وعلى ذلك تكون السمات العقلية أكثر ثباتا من السمات الانفعالية.

ونحن إذ نفرق بين الشخصية والذكاء أنما نفرق بين مجموعتين مختلفتين من التنظيمات السلوكية المتعلقة بالمواقف الاجتماعية - أما فى حالة الذكاء فنقصد تلك التنظيمات السلوكية المتعلقة بالعالم المادى بأعتباره مجموعة من العلاقات الثابتة نسبيا - ومن ناحية أخرى فالاستجابة لأحد هذين النوعين من المواقف تختلف عنها بالنسبة للنوع الآخر أختلافا جوهريا. ففى حالة الذكاء يمكن أن

---

1) سالم القمودى - التغيير - ص 51 - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان 1996

نصف الاستجابة بأنها صحيحة أو خاطئة، إذ أن المعيار في هذه الحالة موضوعي لا يختلف فيه أثنان، أما الاستجابة في حالة الشخصية فلا تخضع لمثل هذا المعيار ولا يهمنا نحن أن نصفها من هذه الزاوية. ما يهمنا من ناحية التقييم في مجال الشخصية هو ما إذا كانت الأستجابة تؤدى إلى حسن التكيف أم لا» (1).

والنفس، أى نفس «ترفض القلق، ولا تطيق استمراره، فإذا ما حل القلق بالنفس، فقد التوازن بين الذات والواقع، وأصبح من الضرورى إحداث تغيير ما:

أما في الواقع، بما يوافق مافي الذات من تناقض وتضاد، وإما في ما بالذات، ليعود إليها الانسجام والتوافق. وإذا ما عجزت الذات عن إحداث مثل هذا التغيير في أى منهما، ظل ذلك كامنا فيها حتى تواتيها فرصة التغيير، أو حتى تقوى على التغيير..

وإذا لم يحدث ذلك، ولم تستطع النفس تغيير ما بها لعجز فيها لأن هذا التناقض والتنافر يوافق هواها، ويشبع نهمها وشهواتها، وهى لذلك لا تستطيع له دفعا أو تغييرا فتتغاضى عنه بالرغم من رفضها له، فلا تلجأ إلى تغيير ما بها، أو التحول عن قيمة أو حكم أو معيار فاسد إلى آخر صحيح، انتقل هذا الكمون إلى اللاشعور، ليتحول بعد ذلك إلى عقد ومركبات نفسية انفصامية، توجه الشعور، وتقود خطاه دون شعوره باللاشعور»(1).

---

1) الشيخ كامل محمد عويضة ـ القدرات العقلية في علم النفس ـ ص 27 - 28 دار الكتب العلمية ـ بيروت 1996

فالنفس عندما تعجز عن التوافق. أو عن تحقيق (السواء -NOR-MACITY) في ذاتها، وعندما تعجز قبل ذلك عن تحقيق رغبات أو إشباع حاجات أو إرضاء هوى من أهوائها، أو نزعة من نزعاتها، بسبب القيود الاجتماعية أو الضغوط الثقافية، أو الاقتصادية، وهى تعلم أن جسدها بامكانياته البيولوجية والفسيولوجية والمعنوية يستطيع ذلك، لو تحرر من هذه القيود والضغوط.. عندما تعجز النفس عن ذلك تلجأ إلى كبت هذه الأمانى والرغائب لحفظ التوازن بينها وبين العقل من جهة وبينها وبين الآخرين من جهة أخرى، عندما يتعلق موضوع الكبت بالآخرين، أو بالواقع الاجتماعى الذى يعيش المرء فى كنفه.

وعملية الكبت هذه تلجأ إليها النفس «للتخلص من شعور القلق والضيق الذى تعانيه، بسبب ورود عوامل متضاربة القيم والأهداف، وبهذه الوسيلة يستطيع المرء أن يبعد عن إدراكه الواعى تلك الرغبات والدوافع والحاجات التى لا يتفق تحقيقها مع القيود التي بنيت فى نفسه على شكل مثل وقيم وتقاليد، وبأبعادها أو كبتها إلى ما يسمى باللاوعى فإن الفرد يضمن لنفسه حالة من الهدوء العقلى والاستقرار النفسى»(2).

ولأن النفس هى التى تريد، وهى التى قد تفشل فى تحقيق ما تريد، أو تعجز عن تحقيقه، ولأن المكبوت هو رغبات وحاجات ودوافع ومتطلبات مشاعر غريزية، نفسية وليست عقلية، عجزت النفس عن

1) سالم القمودى - التغيير - ص 71 - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان 1996 .

2) د. على كمال - النفس - الجزء الأول - ص 63 - دار واسط للمطبوعات والنشر - بغداد - 1988

تحقيقها إشباعا لهواها النفسي، وليست هي تجارب عقلية، أو كيفيات وأنساق منطقية، تسعى النفس إلى تأكيدها إرضاء لمنطقها العقلي، فالكبت أذن عملية نفسية، وليست عملية عقلية، حيث تجبر النفس نفسها على الأذعان للعجز أو الفشل، لتبقى بذلك الرغبة أو الحاجة معلقة بين التحقق والأرجاء والفشل أو العجز عن تحقيقها، حيث يجد المرء نفسه «معرضا لنزاع مستمر بين دوافع متضاربة في طبيعتها، متعاكسة في أهدافها، وتبدو النفس وكأنها مقسومة على نفسها، أي هدف تتبع الرغبة أو المنع، الحب أو الكراهية، التعدي أو التسامح، القبول أو الرفض الاطاعة أو التمرد، ولو ترك هذا الصراع يؤكد نفسه على طبيعته ولو أستطاع الفرد آن يعي هذا الصراع على حاله. لوجد الفرد نفسه مدفوعا في آن واحد إلى نوعين متضاربين من السلوك، ولأدرك في نفسه تضاربا شديدا في العاطفة والفكر، ولأدى ذلك إلى حالة من الضيق والحصر، وعدم الإستقرار. على أن من مهام الشخصية، وهو أمر كامن في طبيعة الانسان وتكوينه، أن تسعى إلى اقامة نوع من التوازن بين هذه الدوافع والأهداف المتضاربة. وراحة الفكر وأستقراره والهدوء النفسي في الداخل، وعملية التكييف مع المحيط من الخارج تعتمد اعتمادا كليا على مقدرة الشخصية على تناول الدوافع المتضاربة والتوفيق بينها بشكل يعطى القناعة للقوى المتنازعة عليها. وعملية التوفيق والتوازن هذه كعملية الصراع، دائمة ومستمرة والوسائل المستعملة في تحقيقها كثيرة ومتعددة، ومعظم هذه الوسائل خارجة عن نطاق الارادة والوعي، وقد

تبلغ حدودا بعيدة من التمويه والتعقيد بحيث يصعب أدراكها وتفهمها بسهولة»(1).

لأن بعض ما هو مكبوت قد ينفلت من سيطرة النفس أحيانا، تحت ضغط الحاجة إلى تحققه، إذ كلما زادت هذه الحاجات ضغطا على النفس، كلما زاد ضغط المكبوت منها، عليها، لتلجأ النفس بعدئذ إلى التصريف أو التعويض لتحقق قدرا من التوازن بين ما ترغب فيه وما يمكن أن تحققه، أو تتحصل عليه بطرق شتى فتهمل النفس عندئذ على تحققه (على حقيقته أو على صورة من صور التعويض الأخرى) وكأنها لا تدرى أنها تسعى إلى تحققه، أو تعمل على تحققه، حتى إذا ما تحقق وأنكرت النفس سعيها إلى ذلك، نسب هذا إلى اللاوعى، أو اللاشعور.

«والسبب في عدم درايتنا باللاشعور هو أن الحلقات المستترة التى تفتح الطريق إلى اللاشعور لا ترحب بها الشخصية الشاعرة وتتنافى مع فكرة الانسان عن نفسه، ومع ما يسميه هو نفسه الحقيقة وهناك طرق كثيرة لظهور ذلك الاعراض والتنافى، كما أن بعض الأفكار قد يلقى إعراضا منا أكثر من غيره. فالفكرة قد تجرح كبرياء الشخص وصورته التى يحتفظ بها عن نفسه. أو قد تشمئز منها حاسته الأخلاقية أو الجماعية، أو قد ترعبه، لأنها تكشف عن دوافع لا يستطيع السيطرة عليها»(1).

---

1) د. علي كمال - النفس- ص 70 - الجزء الأول - دار واسط للمطبوعات والنشر بغداد - 1988

لأن تراكم الكبت يؤدى إلى اشتداد الصراع النفسى، وهو نزاع «يقوم بين رغبات الفرد ودوافعه وغرائزه الأساسية من ناحية، وبين مقاييسه ومثله الاجتماعية والخلقية والشخصية من ناحية أخرى، وقد يكون هذا الصراع واعيا جزئيا أو كليا، وقد يكون على المستوى غير الواعى تماما»(2).

واشتداد الصراع يعمق القلق فى النفس، لأن قوة اللاشعور «على التأثير فينا، أى فى عقولنا الشاعرة تأتى عن طريقين: فإما أن تتحول طاقته إلى طاقة شعورية، إذا كانت على وفاق معنا، وإما أن تظل مستقلة تعترضنا كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا»(3).

وقد يضطر اشتداد الصراع النفس إلى اللجوء إلى صور التصريف المختلفة، كوسائل «للتنفيس تسمح بالتعبير عن بعض عوامل الصراع بشكل غير مباشر، وتعطى مخرجا رمزيا مقبولا لرغبات الفرد المكبوتة»(4).

ذلك أن «كثيرا من الحاجات والرغبات تتعرض للصد، بفعل ظروف خارجية، أو بقوى داخلية، فتقوم الرغبات والحاجات المكبوتة بالضغط على مراكز الانفعال، وعلى اللاوعى، محاولة فرض ذاتها. وإذا ما أستمر فشلها فى التحقق فإن آليات التصريف تلعب دورا هاما فى تخفيف أثرها وأسرها. فعدم إمكانية التحقق الفعلى لا تلغى أمكانية

1) ارنتست جونز - معنى التحليل النفسى - ترجمة سمير عبده - ص 10 منشورات دار النصر - دمشق 1985.

2) د. على كمال - النفس - ص 59 - الجزء الاول - دار واسط للمطبوعات والنشر - بغداد - 1988

3) ارنست جونز - معنى التحليل النفسى - ترجمة سمير عبده - ص 21 منشورات دار النصر - دمشق 1985.

4) د. على كمال - النفس - الجزء الاول - ص 50 - دار واسط للمطبوعات والنشر - بغداد - 1988

التحقق الرمزى أو السحرى أو التعويضى الذى يحدث بآليات عديدة، كالتماهى مع الغير، أو الالتفاف على الحاجة أو الطلب، وإخفائها وراء زميلاتها، أو بوساطة التصريف الكلامى لما للكلام من فاعلية قوية فى إحداث هلوسة إشباع، وبالتالى صورة إشباع فى الذهن، مما يحرم الحاجة والأحاسيس من الدعم النفسى، ومن دعم الذكريات، أو بوساطة طقوس رمزية.

فالتصريف سلوك لا يهدف إلى تلبية الحاجة مباشرة، بل يهدف إلى تخفيف الكبت والاحتقان الناجم عن عدم أكفائها. أو بوساطة التسامى الذى يهدف إلى تعديل الحالة الأنفعالية، وتعويض الخسائر، عبر السعى للحصول على نشوة مفتعلة من جراء إشباع حاجة أو رغبة غير مكبوتة»(1).

ولأن الإنسان لا يقوده عقله، بل تقوده نفسه (قيادة سيطرة وأحكام) لأنها تستغرقه جميعه، بجسده وعقله، وهى التى تستخدم الوعى الذى يقدمه لها العقل، وهى التى تنقله من مجال إلى مجال، لأنها هى التى تقرر تحويل بعضه إلى وقائع وعلاقات، بل تفعل ذلك، وترجىء بعضه الآخر، فتحتفظ به فى الذاكرة، كمعرفة، كمعلومات، كوعى، كتجارب وخبرات، لاستدعائها عند الحاجة، وهو «ما يعتمد على عملية التذكر ويخضع إلى ما تخضع له عملية الذكر من استمرار أو استبعاد أو نسيان ولما كان الفرد لا يستطيع تذكر جميع

1) كمال اللبوانى - الحب والجنس - ص 30 - رياض الريس للكتب والنشر - 1994 .

تجاربه الماضية والحالية فى آن واحد وبدرجة واحدة من الوضوح، فيتبع ذلك أن حالة الوعى لا تشمل جميع هذه التجارب، وأنما تقتصر على ما وقع في مجال الإدراك الحالى من تجارب عقلية، يضاف إليها كل ما يستطيع الفرد إستدعاءه من التجارب العقلية السابقة، سواء جاء هذا الاستدعاء إراديا، بعمليات التذكر والتأمل أو جاء تلقائيا كما يحدث فى عمليات التخيل والاسترسال الفكرى.. فجميع هذه التجارب تقع ضمن حدود الإدراك والوعى، وإن لم تكن فى مجموعها فى مركز الوضوح فى جميع الأوقات»)(1).

والنفس أيضا هى التى تقوم بمحاولة إبعاد بعضه الآخر مما هو غير مقبول على المستوى الشخصى أو الأجتماعى، أو الذى تعجز عن تحقيقه لذلك السبب، فتحاول كبته أو إخفاء معالمه، أو التعويض عنه بتحقيقه على غير صورته. وهو ما تبعده النفس إلى ما يسمى باللاوعى، الذى هو فى حقيقته وعى تناسته النفس أو عجزت عن تحقيقه على حقيقته فى حينه، فغيبت معالمه عن الحضور الذهنى المباشر أو غير المباشر فتحول إلى لاوعى، أى إلى وعى مغمور، غير قابل للاستدعاء فى مجال الإدراك «وإنما يظهر آثره على أفعالنا وتصرفاتنا، بل هو يفرض آثره فرضا على هذه الأفعال والتصرفات، دون أن ندرى... وهو مجال لا يدركه المرء ولا يعيه، ولا يعلم بما فيه من تجارب ودوافع واتجاهات، كما أنه لا يستطيع النفاذ إلى ما يحويه

---

1) د. على كمال - النفس - الجزء الاول - ص 56 - دار واسط للمطبوعات والنشر - بغداد - 1988

بالبصيرة أو الفكر أو التأمل»(1).

وهذه الدرجة من الوعي أو هذا المجال المغمور منه هو ما يسبب قلقا للنفس، وقد يؤدي إلى اضطرابات نفسية مختلفة، مختلفة النوع والدرجة عندما يتراكم ويشتد، فيتحول بعضه إلى عقد نفسية حادة، إذا لم يتم تصريفه بصورة من صور التصريف المتهددة التي تلجأ إليها النفس في الكثير من هذه الحالات.

«والاتجاه العلمي الحديث الذي يقر بوجود الظواهر التي تدلل على وجود مؤثرات لاشعورية في حياتنا العقلية لا يرى فروقا واضحة بين الوعي وما يسمى اللاوعي. وينظر إلى الجزئين منهما نظرة متكاملة، في نطاق عمليات التذكير والنسيان التي هي من خصائص الجهاز العصبي، وهذه العمليات متصلة اتصالا وثيقا بالتفاعلات الكيميوية التي تثيرها التجربة الحسية والعاطفية والإدراكية في مجموعات معينة من خلايا الدماغ. تذكر الإنسان أو نسيان لتجربة معينة مرت به يعتمد على الأساس المادي الذي قد تثبته هذه التجربة في مناطق الدماغ المختصة بوظيفة الذاكرة»(2).

ولأن الوعي ملازم للإنسان، مستمر معه من بدء حياته إلى موته ولأن النفس كثيرا ما تتناسى أو تفشل، أو تعجز عن تحقيق بعض رغباتها أو حاجاتها، لأسباب متعددة ذاتية أو موضوعية، في مختلف مراحل العمر فتلجأ إلى تناسيها أو إرجائها، أو كبتها (وهي تريد

1) المصدر السابق - ص 57.
2) المصدر السابق - ص 59

تحقيقها)... يحدث ذلك فى الصغر كما يحدث فى الكبر.. يحدث فى الضعف كما يحدث فى القوة، «وكل منا قد نصح يوما ما بأن يعالج الفكرة المؤلمة بإخراجها من عقله، ولكن قلما يفكر أحد فى التساؤل عن المكان الذى تذهب إليه بعد إخراجها من العقل، والجواب هو اللاشعور، حيث تظل كامنة إلى أن يستثيرها نوع من التداعى، أو تظل تعمل مستقلة عن الشعور، محدثة نتائج ملتوية لا يستطيع الشخص فهمها على الأطلاق»(1).

لأن المكبوت هو ما تريد النفس أن تحققه (وهى تستطيع) ولكنها تمتنع عن ذلك بسبب من أحكام العقل الذاتى الفردى أو الموضوعى الاجتماعى، فتستسلم لأى منهما، أو لكليهما، فترجىء ما كانت تريد أن تحققه، أو تكبته فتتناساه، ولكنها لا تنساه.

وهذا التحول فى حالة الوعى أو فى بعضه من الوعى إلى اللاوعى عملية مستمرة فى حياة الإنسان، ولا تقتصر على زمن الطفولة الأولى... فنحن فى الكبر كثيرا ما نكبت مشاعرنا.. هوى نفوسنا.. أحكام قلوبنا.. آراءنا السياسية.. مشاكلنا مع زوجاتنا.. مع أولادنا.... تجارب نفسية كثيرة، وخبرات متعددة نطمس معالمها، فنتناساها، لأنها لا تحتمل، أو لأننا نعجز عن تحقيقها، أو نخشى أن يسمعها الناس.. أن تظهر فى تصرفاتنا.. ونحاول أن نشغل أنفسنا بأشياء أخرى، لنلهو بها عنها، ومع ذلك فهى تطفو على السطح

---

1) ارنست جونز - معنى التحليل النفسى - ترجمة سمير عبده - ص 17 منشورات دار النصر - دمشق 1985

احيانا، وتؤثر فينا، تحرجنا تجعلنا أحيانا نتصرف وكأننا لسنا نحن..

ذلك هو اللاوعى.. اللاشعور.. ذلك هو الجانب العلمى المتناسى.. المستتر.. المكبوت فينا.. الذى نخفيه عن الناس.... بل عن أنفسنا ايضا

غير أن الدين وهو العامل الأول في استقرار الحياة النفسية والعقلية يقلل من عمليات الكبت، ويلغى كثيرا من آثارها السيئة. وتدخلاتها اللاواعية فى سلوك الإنسان وتصرفاته.

كما ان العقل والحكمة والرشد، بما فى ذلك الوعى والفهم والإدراك والتعلم والتنشئة والتجربة والخبرة... كلها عوامل تساعد على حفظ التوازن النفس العقلى، خاصة إذا ما كانت النفس مدركة لأحوالها، شاعرة بمشاغلها تعرف ما تريد، وما لا تريد، وما تستطيع، وما لا تستطيع

المصـــادر والمـراجــع

1) القرآن الكريم

2) جيمس دينز - أزمة علم النفس المعاصر - ترجمة د. سيد أحمد زيان مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة 1990.

3) سالم القمودى - العودة إلى الأصل - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والأعلان - مصراته - 1992.

4) سالم القمودى - التغيير - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والأعلان - 1996.

5) د. أحمد عكاشة - علم النفس الفسيولوجي - الطبعة الثامنة - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - 1993.

6) د. على كمال - النفس - الطبعة الرابعة - الجزء الأول - دار واسط للمطبوعات والنشر - بغداد 1988.

7) حسن حنفى - مقدمة فى علم الاستغراب - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت 1992.

8) د. محمد زيعور - السلوك والقياس الشخصى فى علم النفس - رشا برس بيروت 1990.

9) هشام الحاجى - الجسد - نصوص مترجمة - دار نقوش عربية - تونس.

10) مارى مادلين دافى - معرفة الذات - ترجمة نسيم نصر - الطبعة الثالثة منشورات عويدات - بيروت - 1983.

11) ميشيل فوكو ـ مسيرة فلسفية ـ أوبيرو رينوس ـ ترجمة جورج أبى صالح مركز الإنماء القومي ـ بيروت.

12) د. فرج عبدالقادر وآخرون ـ معجم علم النفس والتحليل النفسى ـ دار النهضة العربية ـ بيروت.

13) د. فؤاد البهى السيد ـ الذكاء ـ دار الفكر العربى ـ الطبعة الرابعة.

14) د. خليل معوض ـ القدرات العقلية ـ الطبعة الثانية ـ دار الفكر الجامعى 1994.

15) مطاع صفدى ـ نقد العقل الغربى ـ مركز الأنماء القومى ـ بيروت 1990.

16) د. سامى أدهم ـ ما بعد الفلسفة ـ دار كتابات ـ بيروت 1996.

17) عبدالله العروى ـ مفهوم العقل ـ المركز الثقافى العربى ـ بيروت 1996.

18) كانط ـ أسس ميتافيزيقا الأخلاق ـ ترجمة د. محمد فتحى الشنيطى ـ دار النهضة العربية ـ بيروت 1970.

19) سالم القمودى ـ اغتصاب التطبيق ـ الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ـ 1994.

(20) ناصيف نصار ـ مطارحات العقل الملتزم ـ دار الطليعة ـ بيروت 1986.

(21) كانط ـ نقد العقل المحض ـ ترجمة يوسف وهبه ـ مركز الإنماء القومى. بيروت.

(22) ناصيف نصار ـ الأيديولوجية على المحك ـ دار الطليعة ـ بيروت 1994.

23) هربرت ماركيوز ـ العقل والثورة ـ ترجمة زكريا إبراهيم.
24) روجيه ميل ـ المواقف الأخلاقية ـ ترجمة عادل العوا ـ منشورات عويدات بيروت 1987.
25) الشيخ كامل محمد عويضه ـ القدرات العقلية فى علم النفس ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت 1996.
26) أرنست جونز ـ معنى التحليل النفسى ـ ترجمة سمير عبده ـ منشورات دار النصر ـ دمشق 1985.
27) كمال الليواني ـ الحب والجنس ـ رياض الريس للكتب والنشر 1994.

● نبذة شخصية عن المؤلف

- من مواليد الزاوية / ليبيا ١٩٤٧.

- حصل على ليسانس الآداب قسم الفلسفة كلية الآداب جامعة قار يونس ببنغازى ١٩٨٧.

- حصل على دبلوم الدراسات العليا من كلية التربية بطرابلس قسم الفلسفة وعلم الاجتماع.

- حصل على رسالة الماجستير فى الفلسفة كلية التربية بطرابلس ١٩٨٧.

- وصدر له مجموعة كتب:

١ - العودة إلى الأصل ١٩٩٢

٢ - اغتصاب التطبيق ١٩٩٤

٣ - التغيير ١٩٩٦

٤ - العدل والحرية ١٩٩٧

محتويات الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب المصرية
١٠١١٦ / ١٩٩٧
الترقيم الدولى
977 - 13 - 0215 - 9